

اللغة العربية في مراحل الضعف والتبعية

أ. د. عبد العلي الودغيري (*)

العربية قبل الاستعمار :

قبل الحديث عن معاناة اللغة العربية ومشاكلها والتحديات التي تواجهها في عصرنا هذا الذي هو عصر ضعف وتبعية بامتياز، أرى من المفيد التذكير على وجه السرعة والاختصار، بأهم التحديات والمشاكل التي واجهتها في مرحلتين سابقتين من الضعف والاستكانة أيضاً، وهما: مرحلة ما قبل الاستعمار ومرحلة الاستعمار.

أما في مرحلة ما قبل الاستعمار، فقد دخلت الأمة العربية الإسلامية في ظلمة حالكة طوال عصر سُمي بعصر انحطاط شامل (من القرن الخامس إلى الرابع عشر الهجري) وعُرفَ عند المؤرخين بالتفكك والتمزق والصراع على المستوى السياسي والجغرافي، والانهيار على المستوى المادي والاقتصادي، والضعف والتراجع والانكماش على المستوى الفكري والعلمي والثقافي والحضاري. وهذا الوضع كان تأثيره قوياً جداً على اللغة العربية فانحطَّ مستوى تعليمها واستعمالها. ونحن حين نتحدث عن ضعف العربية خلال هذه المرحلة، إنما نعني العربية الفصحى على وجه الخصوص، لأنها هي التي عانت من تراجع مستواها وجُمود أساليبها وتراكيبها، وتوقُّف نمو مُعجمها، وتغلُّب عليها العُجمة والدخيل، وطغت العاميات فتباعدت الفجوة بينها وبين الفصح. وفي هذه المرحلة ازدهر الأدب الشعبي (من زجل وملحون وشعر نبطي وأمثال شعبية ونحو ذلك)، وتخلَّف — في مقابله — أدبُ الفُصحى شعراً ونثراً، كمّاً وكيفاً. وترك الإبداع مكانه للتقليد والاجترار في كل شيء. وهذا الوضع هو الذي لخصه ابنُ خلدون في نصٍّ مشهور بالمقدمة يمكن الرجوعُ إليه ⁽¹⁾.

(*) كلية الآداب - جامعة محمد الخامس - أكادال - الرباط.

فلما انبلج فجر النهضة الحديثة — كما يُسمونها — في القرن التاسع عشر الميلادي، التفتت الأمة إلى ما حولها، فإذا هي أمام لغة ضعيفة خائرة مُتهالكة، مُهلهلة في أساليبها وطُرُق تعبيرها، قديمة في ألفاظها وتركيبها، فقيرة في مصطلحاتها، عاجزة عن مواجهة عصر النهضة الذي كان يُراود الانتقال إليه، ومُحتاجة إلى جهود كبيرة لاكتساب القدرة على مُغالبة اللغات الأوروبية التي أصبحت مُسيطرّة. ولكن الغُيورين على أمتهم لم يَستسلموا لمُنبّطات تلك المرحلة، ولم ينهاروا أمام ضخامة التحديات وجَسامة العقبات التي كانت تبدو كالقلاع المُسيّدة التي يصعبُ اختراقها واقتحامها، بل سرعان ما زال الذُهلُ وانقشعت غيومُ الدهشة، فبدأنا نستشعر بدايةً انطلاقة ثقافية وانبعاثة أدبية ولغوية جديدة، حاول الروادُ خلالها ربطَ الحاضر بالماضي المُجيد، وتأسيس الحديث على ثوابتٍ من مخزون ذلك القديم المُشرق. وقد ساعد ظهورُ الطباعة والصحافة، وانتشارُ المدارس، والشروعُ في ترجمة العلوم والآداب الأجنبية، والاهتمامُ بالتعليم، والاحتكاكُ بتجارب الغرب، في الإسراع بتطوير العربية وإحيائها، وبدأت الحياة تُدبُّ في حركة التآليف والإبداع، ومنها صناعةُ القواميس والعناية بالمصطلحات والتفكير في تحديث المُعجم. وصار المشهدُ العامُ يبدو أماناً وكأن السفينة فيه على أهبة الإقلاع.

العربية في مرحلة الاستعمار:

لكن هذه الحركة التي دبّت في الوطن العربي الإسلامي في محاولة لاستجماع القوة والنهوض من الكَبوة الطويلة، سرعان ما اصطدّمت بجحافل الاستعمار الاستيطاني وهي تَرَحّف من كلّ الجهات. فكان ما كان من تمزيق أوصال الأمة وبسط السّيطرة التامة عليها عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً. وكانت الغاية تعطيل النهضة وتوقيفها بالقوة، وفرض توجّه ثقافي معيّن، فضلاً عن المقاصد والغايات الأساسية الأخرى، وهي الاستحواذ على ثروات الأمة واستغلال كلِّ الموارد البشرية والطبيعية وفتح الأسواق أمام السلع الغربية. وقد استطاعت أوروبا، بموارد أراضيها وسواحل أهلينا، بناءً اقتصادها وقوّتها العسكرية والمادية والعلمية. ولقد غدّى النزعة الاستعمارية عند الغرب، وقوى حماسها في السيطرة على بلاد

المسلمين، حَقْدَ دفينٍ موروثٍ ضد الإسلام، ورغبةً عارمةً في الانتقام واستعادة ما أُخذَ من الكنيسة في زَمَنِ الفتح. كما استُعْمِلَت من أجل تنفيذ خُطَط السيطرة كُلِّ الذرائع والمُسَوِّغات مهما كانت واهية، بل إن الاستعمار لم يتورَّع عن الترويج لنظريات عنصرية في غاية السُّخف والفَجاجة، كالقول بفكرة العِرْق الأرقى والعِرْق الأدنى، وحقَّ العِرْق الأول في استعمار العِرْق الآخر من أجل تحضيره وتمدينه. وكان جول فيري (Jules Ferry) ⁽²⁾ من رجال السياسة الكبار في فرنسا في القرن التاسع عشر الذين تحمَّسوا لهذه الفكرة وروَّجوا لها على نطاق واسع.

ولا شك في أن أخطر عمل قام به الاستعمارُ من أجل تحقيق غاياته الاقتصادية والسياسية، والتمكين لسيطرته التامة على الوطن العربي والإسلامي، هو استهدافه لمقومات هُويتنا الثقافية القائمة أساساً على الدين واللغة العربية، لأنه كان يَعْلَم يقيناً أن السيطرة الحقيقية لا تتمُّ إلا بذلك. ومن ثَمَّ أصبح يستحلُّ فعلَ كلِّ شيءٍ للقضاء عليهما وتحييدهما وتعطيل مفعولهما. وقد كانت منطقة المغرب العربي مثلاً واضحاً على نوعية المخططات التي طبَّقها الاستعمارُ. وكلُّ من يقرأ تاريخ الصراع مع الاستعمار في تلك المرحلة، سيكتشف بلا شك أن استهداف اللغة العربية والثقافة الإسلامية كان رأسَ الحربة في كل المعارك التي خاضها الاستعمارُ في مواجهة الحركة الوطنية التحريرية التي كانت - في منطقة الشمال الإفريقي على الخصوص - لا تترك مناسبةً تمرُّ دون أن تضع على رأس قائمة مطالبها عدمَ المَساس بالدين والحفاظ على اللغة العربية ونشر تعليمها. ولمن يريد الوقوف على نماذج واضحة ومُعبرة عن السياسة اللغوية والثقافية التي نهجتها فرنسا في المغرب وشمال إفريقيا وغربها بصفة عامة، وأمثلة من القرارات والقوانين التي سنَّتها لذلك، فما عليه إلا الرجوع إلى كتابات عدد من مُنظري هذه السياسة اللغوية والتعليمية والثقافية من رجال الحماية الفرنسية، من أمثال بول مارتي ووليام بونتي ومُوريس لُوجلي وفكتور بيكي ولُوسيان بي وسواهم ⁽³⁾. أما المشرق العربي، فما كاد يتخلَّص - أو يحاول التخلص - من نفوذ اللغة التركية التي أدَّت، مع عوامل أخرى، إلى إضعاف اللغة العربية وإخماد جذوتها، حتى سقطت تحت نفوذ اللغة الإنجليزية التي عمل الاستعمارُ البريطاني على فرضها بالقوة ⁽⁴⁾.

وجديرٌ بنا أن نسجل هنا حقيقةً تاريخيةً كثيراً ما يقفّرُ الناسُ عليها أو يغفلون أهميّتها، وهي أن اللغة العربية، كانت قد أصبحت، منذ انتشار الإسلام في البلاد الشاسعة التي انتشر فيها، وإلى حين دخول الاستعمار، لغةً الكتابة والثقافة والعلوم لأغلبية الشعوب الإسلامية في عدد من القارات، كما أصبحت اللغة الرسمية الأولى لكافة المجتمعات والدول العربية بما فيها منطقة الشمال الإفريقي التي اعتبرت لغة القرآن فيها لغتها الرسمية والعامة التي تستعملُ في مجالات الدين والعلم والتعليم والثقافة والأدب والاقتصاد والتجارة والتشريع والقضاء ودواوين الإدارة وكلّ المراسلات والمعاملات الأخرى التي تحتاج فيها كلُّ لغة لأن تُكتب وتُقرأ. أما اللهجات الأمازيغية والعاميّات العربية، فقد عُهدَ إليها بشكل تلقائي وعفوي بوظائف وأدوارٍ أخرى تقوم بها على مستوى التخاطب اليومي وبعض أنشطة الوعظ الديني في بعض الأوساط الشعبية، وكلّ المعاملات التي لا ترقى إلى مستوى التعبير الكتابي والثقافة العامة. ورغم أن الأمازيغية قد استُعملت في كتابة بعض النصوص في العصر الإسلامي، إلا أن عدد ما كُتبَ بها ظلّ قليلاً ومحدوداً جداً، ولم يتجاوز مجاله بعض الموضوعات الدينية كشرح بعض المتون الضرورية في العقيدة ومبادئ الشريعة. وكانت كتابتها بالحروف العربية لا بغيرها. وبالجملّة، فإن اللغة العربية كانت تقعُ من المسلمين عموماً والمغاربة خصوصاً، موقعَ التقدير والاحترام. ولم تكن لغةً أو لهجةً أخرى تتنازعها في هذه المكانة التي انفردت بها طوال العصور السابقة للاستعمار. ورغم التأثير الكبير الذي تركته مرحلة الانحطاط على اللغة العربية في أغلبية الأقطار، إلا أن هذا لم يفقدها مكانتها المرموقة في بلاد المغرب ونفوس المغاربة. نعم، أصابها الضعفُ هنا كما أصابها هناك، لكنها ظلّت تحتفظ بكل وظائفها ومكانتها الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وعلى كل حال، إن الاستعمار الفرنسي منذ احتلاله للشمال الإفريقي رسمَ لنفسه سياسة لغوية واضحة، تقوم اختصاراً على القضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية محلّها في كلّ المواقع التي كانت تحتلّها، وعملَ على إغلاق مدارسها والتضييق على مدرّسيها ومنع استعمالها في الإدارة والمكاتبات الرسمية وكلّ

المجالات الحيوية، ومُزاحمتها بفتح مدارس فرنسية وتصيرية والإنفاق عليها بكل سخاء، ومنح خريجها امتيازات واسعة، وإضفاء مكانة خاصة عليهم. ولم يكتف بذلك، بل فعلَ مثلَ ما فعله الاستعمارُ الإنجليزي في المشرق العربي أيضاً، وربما كان أنكى وأمضى، إذ لجأ أيضاً إلى تشويه صورتها وإعلان الحرب الدُعائية النفسية ضدها عن طريق التشكيك في قدرتها على مواكبة العصر وصلاحياتها لتلقي العلوم الحديثة والتقنيات، والتعامل بها في مجالات الإدارة وتسيير الأعمال والمقاولات، وافتقارها إلى المصطلحات الحديثة. وقد جندَ لهذه الدعاية المسمومة والحرب النفسية الفتاكة كلَّ ما لديه من خبراء ومُستشرقين، فكألوا للعربية كلَّ ما يتصوره العقل وما لا يتصوره من التُّهم المُلققة، وألصقوا بها ما شاءوا من العيوب والنقائص. وهنا وجدت تلك الثُلَّة من المخدوعين أو المُستلبين المُنبهرين بالغرب أو العاملين لحسابه — بشكل أو بآخر — من أمثال سلامة موسى وسعيد عقل، مجالاً فسيحاً وجوّاً مناسباً لينخرطوا في هذا السياق مع زُمرة من المُستعربين ممن تلقوا تكويناً عربياً من أجل غاية واحدة، وهي أن يُجندوا لخدمة الاستعمار. وهكذا طلعت دعوات من الشرق والغرب تدعو إلى التخلّي عن العربية الفصحى لأنها في نظرها سببُ التخلف والجُمود، وتنادي باستعمال الدّوارج والعاميّات، وأخرى تصيحُ بالتخلّي عن الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به، وثالثة تكتفي بالدعوة إلى عربية خالية من الإعراب، إلى جانب حركاتٍ أخرى ترى نفسها مُعتدلةً تحتُمي وراء الدعوة للتيسير، فتنادي بإدخال جملة من التغيرات بعضها مقبول وبعضها حقٌّ أريدَ به باطلٌ.

وهناك واجهةٌ أخرى تحرّكت فيها أيدي الاستعمار خلال المرحلة التي نتحدثُ عنها، ألا وهي إحياء النُّعرات العرقية والطائفية، وإذكاء نارها بين الفئات المُتساكنة في المجتمعات العربية الإسلامية. فظهرت في المشرق دُعواتٌ إلى الفينيقية والفرعونية والقبطية، لكنها سرعان ما فشلت. أما في المغرب العربي فقد نال الاستعمارُ الفرنسي قَصَبَ السُّبق في تحريك الروح العنصرية والنَّفخ في رمادها وإحياء العصبية المقيّنة بين العرب والأمازيغ، ثم بين العربية والأمازيغية، بعد أن مضت قرونٌ طويلة من التماسك والالتحام في ظل الإسلام الذي آخى بين كلِّ

العناصر المكوّنة للمجتمع المغاربي وصهرها في سبيكة واحدة. وما كان ذلك منه إلا بقصد زرع أشواك التفرقة التي سعى إليها بالضرب على وتر الدين واللغة والثقافة والعرق. وقد تمّ له بعض ما أراد ولو بعد حين.

وهكذا يمكن تلخيص معاناة العربية ومُجمل التحدّيات والعقبات التي واجهتها في هذه المرحلة الاستعمارية، في النقاط الآتية:

أ - شنّ حملة ضارية ومنظمة ضدّ وجود العربية بصفة عامة وفصاحتها بصفة خاصة، واتهامها بالقصور والعجز والتخلّف والتعقيد والافتقار إلى المصطلحات الحديثة، وعدم صلاحيتها للتعليم التقني والعلمي ولمواكبة العصر واستيعاب التطوّر الحديث. ومن ثمّ اعتبروها أساس التخلّف وأن الاستمرار في التشبّث بها معناه استمرار التخلّف والجُمود.

ب - إقصاء العربية - نتيجة ذلك - بصفة عامة، والفصحى بصفة خاصة، من كل المجالات الحيوية التي كانت تُستعمل فيها من قبل، أو كان من المفروض أن تُستعمل فيها خلال هذه المرحلة كالتعليم العصري والتقني، والقضاء والتشريع (باستثناء الأحوال الشخصية)، والإدارة، والاقتصاد والتجارة، والعلاقات الخارجية ... وسواها.

ج - الدعوة الصريحة إلى استعمال العامّيات التي كانوا يُقدّمونها على أنها تمثّل العربية الحديثة والمعاصرة والمحيّة، واعتبار الفصحى لغة عتيقة لا تُستعمل إلا في الكتابة، أو ميّنة لا فائدة من إحيائها. ولم تنشط حركة العناية بالدوّارج واللهجات والاهتمام الفائق بدراستها وفتح أقسام متخصصة بها في كل الجامعات الأوروبية، إلا في هذه المرحلة الاستعمارية وما بعدها.

د - الدعوة إلى التخلّي عن الحرف العربي واستبدال الحرف اللاتيني به . وقد استطاعت هذه الدعوة أن تؤثر في بعض الشعوب الإسلامية التي كانت لغاتها تُكتب بالحرف العربي فتحوّلت إلى الحرف اللاتيني، كما حدث للغة التركية والماليزية وكثير من لغات إفريقيا وشرق أوروبا .

هـ — إشعال الحروب بين العربية وأخواتها من لغات الشعوب الإسلامية لتحويل المعركة من صراع بين اللغة الوطنية واللغة الأجنبية، إلى صراع داخلي بين المكونات اللغوية للدولة الواحدة. وهذا ما حدث في منطقة الشمال الإفريقي، حين حاول الاستعمار الفرنسي شقّ الوحدة القائمة بين مكونات شعوبها، وسعى بكلّ سبيل إلى الإيقاع بين العربية والأمازيغية وإشعال نارِ العداء والصراع بينهما، ونشر الادعاء المسموم بأن استعمال العربية معناه القضاء على الأمازيغية، وأيّ انتشار أو توسع للأولى سيكون على حساب الثانية. وبهذه الطريقة الماكرة التي لم يتنبّه لها الكثيرون، استطاعت الفرنسية أن تنقوئ وتغزل في البلاد، وتكسب المواقع تلوّ المواقع، حين أمكن لها أن تصرف الأنظار عنها وتحتمي بموقع المتفرّج الشامت، وأن تجعل من السياسة اللغوية في المنطقة، طوال الحقبة التي أعقبت الاستقلال، سياسة المتخبط خبط عشواء في ظلام ليل دامس.

ونحن حين نتساءل: لماذا حُربت العربية في مرحلة الاستعمار بكلّ تلك القوة والشراسة التي قلّ نظيرها؟ سنجد في الجواب عن هذا السؤال ما يلخص أهداف السياسة اللغوية الاستعمارية في المغرب الكبير على وجه الخصوص. وهذا الجواب يمكن إجماله في النقط الآتية:

أ — أن العربية كانت منذ مجيء الإسلام مرتبطة ارتباطاً قوياً بهذا الدين عن طريق القرآن الكريم الذي كلما أقبل الناس على قراءته وحفظه ازداد انتشار هذه اللغة، وكلما زاد انتشار العربية زادت درجة فهم الناس للدين، وكلما ازداد فهمه ازدادوا تشبُّهاً بقيمه وتشبُّعاً بمبادئه، بما في ذلك قيم العدل والحرية ورفض الظلم والاستعباد والهيمنة والإثم والعدوان. ومن ثقافة الإسلام: الحث على التآخي والتضامن والوحدة والنصرة ورص الصُوف، والحض على الجهاد — جهاد النفس وجهاد المعتدي على المسلمين وعلى القيم الإنسانية العليا — والصمود والتضحية بالنفس والنفيس من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ومقاومة الظالم والغاصب، والتحلّي بالصبر في مواجهة المكاره، والتسلّح بالعلم والمعرفة واليقظة والوعي والتنوير. فالإسلام — إذن — هو

تلك الطاقة الهائلة التي تمدُّ المسلمين المقاومين بالقوة الروحية التي لا تنفد، والمعنويات العالية التي لا تقهر، في حرب لا يمكن للاستعمار أن ينتصر فيها إلا بتعطيل هذا الدين أو إزاحته من الطريق نهائياً. ولا يتأتى ذلك إلا بالقضاء على القرآن، ولا يتأتى القضاء على القرآن إلا بالقضاء على لغته التي بها يقرأ ويفهم أحسن قراءة وأحسن فهم. وقد صرَّح أقطاب السياسة الاستعمارية بهذه الفكرة في مناسبات كثيرة ولم يكونوا ليخفوها في أدبياتهم وعن أنصارهم. وليس هنالك أوضح ولا أبين وأصح، من قولة الماريشال ليوطي التي سارت شعاراً يُلخِّصُ الخطة الواضحة للاستعمار، وهي أن « العربية عاملٌ من عوامل نشر الإسلام، لأن هذه العربية يتمُّ تعلُّمها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتنا (كما يقول) أن نطوِّر البربر خارج الإسلام». وقول فيكتور بيكي: «المهمُّ قبل كل شيء أن نتوقَّف عن نشر الإسلام وتعليم العربية للبربر»⁽⁵⁾. ورغم أن الإسلام كان قد انتشر في الشمال الإفريقي كلِّه بما في ذلك المغرب الأقصى، منذ منتصف القرن الهجري الأول (السابع الميلادي)، فإن المستعمر مع ذلك كان يحرص على أن لا تصل العربية إلى المناطق البربرية التي لم تتعرَّب بعد في بداية القرن الماضي، لأن تعريبها يزيد في تقوية إسلامها وإيمانها وتشبُّثها بدينها، وحسن فهمها لعقيدتها، وبالتالي تزداد شوكة مُعاداة أهلها للحركة الاستعمارية. وكثيراً ما أشاع الاستعمار في أدبياته المنشورة، أن الإسلام في المناطق غير المعرَّبة كان إسلاماً هشاً وسطحياً، وأن فيها بقايا من عادات نصرانية ووثنية قديمة تعود إلى مرحلة ما قبل الإسلام، فعَمَلَ على النفخ فيها وتضخيمها، وذهب بسببها إلى حدِّ القول إنَّ البربر يجب أن تُطبَّق عليهم أحكام وقوانين خاصة غير قوانين الشريعة الإسلامية وأحكامها، وهذه القوانين الخاصة هي عبارة عن مجموعة أعراف وعادات موروثة حاول الظهير البربري (1930م) إسباغ الشرعية عليها وسنَّ قانون رسمي لتطبيقها، لكن المحاولة باءت بالفشل بسبب المقاومة الوطنية التي انخرط فيها العرب والبربر على حدٍّ سواء.

ب — أنها وسيلة لربط المغرب بالوطن العربي والإسلامي، وهو شيء كان الاستعمار يعمل على محاربته بكل قوة، ولا سيما في تلك المرحلة التي بدأت فيها بعض بوادر النهضة واليقظة تلوح في الأفق، وتنتشر تيارات تحررية إصلاحية انطلاقاً من الحركة السلفية وأفكار الأفغاني (1839 – 1897م) والكواكبي (1854 – 1902م) وتلاميذهما، في المشرق، وترحف شيئاً فشيئاً نحو بلاد المغرب، وصارت تعمل عملها في إحياء روح القوة والعزة والوعي في نفوس أبناء الأمة. فمحاربة العربية إذن كان من أهم أهدافها محاولة القضاء على هذه الأداة التواصلية التي يمكن أن تزيد في تأجيج المقاومة ومدّها بالأفكار والشعارات المثيرة، وتؤدي إلى التنسيق بين طرفي حركة التحرر والإصلاح في المشرق والمغرب. ومن هنا يجب أن نفهم لماذا كان الاستعمار الفرنسي يخطط أيضاً لعزل المغرب عن المشرق لغة وثقافة وحضارة وانتماء — تمهيداً لفصله حضارياً وتاريخياً وعرقياً بعد أن تمّ فصله جغرافياً وسياسياً — وإحاقه بالغرب لغةً ودينًا وثقافةً. وقد سُخرت من أجل هذه الغاية كل الإمكانات المادية والبشرية وطاقات «علماء» الاستعمار ومستشرقيه وخبرائه في التاريخ واللغات والديانات والإناسة والحفريات. وزُيِّف في سبيل ذلك كثير من الحقائق وقُدِّمت على أنها مُسلّمات علمية، وما هي سوى أوهام وأكاذيب سرعان ما انكشف أمرها وتبيّن ما وراءها من مكرٍ وخداع.

ج — أن الفصحى على وجه الخصوص، وسيلة لربط حاضر الأمة بتاريخها الثقافي والحضاري، وماضيها المشرق الذي تستمد منه مصادر القوة المعنوية فيملؤها ذلك فخراً واعتزازاً. وهذا عامل نفسي قوي يمنحها طاقة لا تُحْد في الصمود والمقاومة والتصدي لكل احتلال، ولا سيما إذا استهدف هويّتها ومقومات شخصيتها الروحية والثقافية. فمن خلال اللغة وما كُتِب بها من مدونات، يسهل على الشعوب والأمم أن تسترجع عند الحاجة، ملامح حضارتها وسيرة بطولاتها وملاحمها. تستلهمه وتفزع إليه بين الحين والآخر، لتجدد معاني القوة والمنعة، وتقرأ فيه ما يُعينها على اليقظة والنهوض كلما مرّت بها نكبة من النكبات، أو وقعت في كبوة من الكبوات. والأمة التي ليس لها تاريخ مكتوب،

فكانما ليس لها ماضٍ موجودٌ، ومن ليس له ماضٍ ليس له جذورٌ، ومن ليس له جذورٌ يسهلُ اقتلاعه واجتثاثه ومحوه من ذاكرة التاريخ. ولذلك كان من جملة الأهداف الاستعمارية مُحاربة اللغة العربية التي بها يتصل حاضِرُ المغرب بماضيه وتراثه الثقافي والحضاري، تمهيداً لصياغة مستقبله صياغةً غربيةً جديدةً، وتكوينِ أجيالٍ مُتَنَكِّرةٍ لذلك الماضي والتاريخ تنكراً تاماً، لأنها سوف تتساهل ولن تعرف عنه شيئاً ذا بال. وهذا ما ظهرت بعضُ نتائجه بالفعل في مرحلة لاحقة.

د — أن العربية هي اللغة الوحيدة التي كانت لها مقومات وجودٍ فكريٍّ وثقافيٍّ وعلميٍّ راسخٍ وثابتٍ وقويٍّ، تستطيع به مواجهة الفرنسية وأية لغة أوروبية أخرى، بخلاف اللغات واللهجات المحلية الصغيرة التي لا تملك تراثاً غنياً ثقافياً وعلمياً مكتوباً. والقضاء على العربية هو الوحيد الذي يسهلُ مأمورية اللغة الفرنسية لتسود وتسيطر بعد أن يزاح من طريقها منافسها القوي المتمثل في العربية الفصحى القادرة وحدها على مقارعتها وإحاق الهزيمة بها، بما لها من تراثٍ فكريٍّ وعلميٍّ وحضاريٍّ كبيرٍ يفوق في حجمه وعمقه وماضيه تراثَ الفرنسية وكلِّ اللغات الأوروبية الحديثة. أما اللهجات العامية في العالم العربي، وحتى داخل كلِّ بلدٍ عربيٍّ، فضعفها في انقسامها وكثرتها وشفويّتها وعفويّتها ونمونها العشوائي الذي لا تحكمه قيود. وكلُّ هذا يزيد من تباعد بعضها عن بعض بشكلٍ سريع، ويساعد على زوالها إن اقتضى الحال. بالإضافة إلى خلوها من أيٍّ مخزونٍ تراثيٍّ عميق، أو وزنٍ فكريٍّ وعلميٍّ كبير، أو حمولة دينية ذات مرجعية صحيحة ومؤثقة، والقضاء عليها أو إيقاؤها سيان لا يؤثران. لقد كانت الفرنسية — وغيرها من اللغات الأوروبية التي ارتبطت بالاستعمار — تبحث دائماً عن بيئةٍ صالحةٍ لتعيش وتُحيا وتُعمّر فيها وتسود. وهذه البيئة المناسبة كانت تجدها وسطَ لغاتٍ ضعيفةٍ أو لهجاتٍ ليس لها مقومات الصمود والمقاومة، وهذا ما تمَّ لها بالفعل داخل الدول الإفريقية التي احتلتها. فكان مما سهل مأموريّتها هناك، أن وجدت بيئةً خصبةً تتكوّن من لغاتٍ ولهجاتٍ ضعيفة لا حصرَ لها، وليس لها تراثٌ مكتوبٌ ولا أية مقوماتٍ أخرى للتّحدي، فسرعان ما

أخذت البيعة لنفسها في تلك الدول، وأصبحت لغة حاكمة مُحَكِّمة لا ينازعها في حكمها أحد. وهذا ما حاولت تطبيقه في منطقة المغرب العربي أيضاً. ولكن — لسوء حظها — كانت العربية فيها مُتَجَذِّرة لقرون مَضَتْ، وكانت — وما تزال — لغة دينٍ وتُراثٍ وعلمٍ وحضارة أقدم من تراث الفرنسية والإنجليزية وحضارتيهما، فلم تستطع إسقاطها «بالضربة القاضية الأولى» كما فعلت مع لغات إفريقيا السوداء، وكما فعلت الإسبانية بلغات السكان الأصليين في أمريكا الجنوبية، والإنجليزية بلغات سكان أمريكا الشمالية وسكان أستراليا وبلدان آسيوية وأفريقية أخرى. لم تستطع لغات الاستعمار افتراس العربية افتراساً وابتلاعها ابتلاعاً نهائياً، لكنها مع الأسف استطاعت — بتوالي الضربات — إنهاك قواها وتشكيك أهلها فيها وإبعادها عن أهم المجالات الحيوية الفاعلة.

هـ — أن العربية هي أهمُّ مقومات الهوية الثقافية للمغرب — كما لبقية الشعوب العربية — بعد الدين الإسلامي. وفي القضاء عليها قضاءً على هذه الهوية أو إعادة تشكيل عناصرها ومكوناتها. والقضاء على هوية شعب أو أمة معناه تجريدُهما من شخصيتيهما وسهولة فرض التبعية عليهما. فمن لا هوية له مضطراً بلا شك، لتبني شخصية الآخر وتقمصها والذوبان فيها، وسهل عليه أن يكون ذيلاً من ذيولها وتابعاً من توابعها. وفاقد الشخصية فاقد للتمييز، مَسْلُوبُ الإرادة والرأي والقرار، ومن سلبها فهو داخل في حكم المَعدوم والمفقود.

العربية في مرحلة التبعية:

كان من المفروض أن نسمي هذه المرحلة، بمرحلة الاستقلال، ولكنها في حقيقة الأمر، لم تكن بالنسبة للوطن العربي والعالم الإسلامي كله، سوى حلقة أخرى من حلقات الضعف والتبعية واستمرارٍ للمرحلة السابقة. فالاستعمار ظل قائماً ومستحوذاً لم يبرح مكانه قط. وكل ما هنالك أنه غير موقعه وأسلوبه، من استعمارٍ استيطانيٍّ مباشرٍ وصريح، إلى استعمارٍ غير مباشرٍ، ثقافي ولغوي واقتصادي. بل لقد رأيناه منذ العقد الأخير من القرن الماضي يعود إلى طبيعته الأولى استعماراً استيطانياً سافراً ومباشراً، فاحتل العراق وأفغانستان، ولن يتورع عن احتلال أي بلد

عربي أو إسلامي آخر كلما وجدَ الفرصةَ سانحةً. وقبل ذلك احتلت بريطانيا أرضَ فلسطين ثم سلّمتها إلى صنيعتها إسرائيل التي لم تكتفِ بها وإنما أضافت إليها عام 1967م أجزاءً من مصر والأردن وسوريا ولبنان، وما يزال هذا الاحتلالُ مستمراً في فلسطين وجزءٍ من سوريا ولبنان. على أن التخطيط للغزو الروحي والثقافي كان مُهيئاً بدقة منذ البداية، ولم يكن أمراً يجري في تَسْتَرٍ وخفاء، بل كان سافراً مكشوفاً لا غبار عليه. وكان مُنظِّرو السياسة الاستعمارية لا يجدون غَضاضةً في التّصريح به والتّبجّح بمجهودهم فيه، ومنهم بول مارتي الذي طالما ردّد في كتابه (مغرب الغد: Le Maroc de demain) عبارات كثيرة من قبيل قوله: « وبعد الغزو العسكري هناك أسلحةٌ جديدة؛ أي أن اللغة والفكر الفرنسيين سيدخلان الحلبة ويقودان عند ذلك المعركة الجديدة»⁽⁶⁾. جورج صوردون رئيسُ محكمة الاستئناف بالجزائر سابقاً، إلى غاية سنة 1946م، يتأسّفُ لكون فرنسا في تلك المرحلة لم تصل بعدُ إلى استكمال ما سماه (الغزو الروحي) فكان يقول: « والحقّ أقول: إن الغزو الروحي ما زال لم يتمّ بعدُ، وهو الشيءُ الأهمُّ والشيءُ الذي يستحقُّ الاعتبار في نظرنا»⁽⁷⁾. ولكن هذا الغزو الذي لم يتحقّق كاملاً في مرحلة الاستعمار، تمّ تحقيقُ الكثير منه بأساليب أخرى في مرحلة الاستقلال التي تستحقُّ أن نسميها مرحلة التّبعية والمهانة والانكسار.

ولو تأملنا تجربة المغرب على سبيل المثال، لوجدنا أنه كان من المؤمّل، بعد أن أحرزت البلاد استقلالها الجغرافي (ولو مبتوراً)، أن تحصل أيضاً على استقلالها الثقافي واللغوي. ولكن مشروع الاستقلال الثقافي واللغوي قد وُثِدَ وأجهضَ — في غالبية بنوده التي يقوم عليها — منذ الأيام الأولى لما سُمّي بمرحلة (الاستقلال). ومع مرور الوقت صار يفقد قوةَ جاذبيته وبريقه عند السواد الأعظم من الناس، حتى أصبح مجردَ حلم لا يداعبُ سوى خواطر المسكونين بهواجس حُبِّ هذا الوطن والمهمومين بقضايا الأمة. لكنه مع ذلك سيظلُّ في قلوب هؤلاء بمثابة الجذوة التي لا تنطفئُ حرارتها والضمير الحي الذي لا ينقطعُ نبضه. على أن تجربة المغرب في هذا الباب ليست فريدةً من نوعها، بل هي مجردُ مثالٍ لما وقع أيضاً في بلدانٍ مغاربية أخرى.

وهذا المشروع الذي لم يتحقق كما أراد له أصحابه من النخبة المثقفة الواعية المخلصة، كان يقوم على أساسين:

أولاً: بناء مدرسة وطنية ذات دعائم أو ركائز أساسية أربعة، وهي: (1) تعميم التعليم. (2) ومغربة أطره والقائمين عليه كافة. (3) وتوحيد سياسته وتوجهاته وأهدافه واختياراته الكبرى التي تراعي خصوصيات المغرب وعناصر هويته الدينية والثقافية واللغوية. (4) وجعل العربية اللغة الأساسية للتلقين في مراحل كافة، مع تعليم لغات أجنبية أخرى حسب الحاجة والضرورة وبغاية الانفتاح والتفتح والاستفادة من تجارب الآخرين.

ثانياً: تطبيق خطة موازية لتعريب الإدارة والحياة العامة، تستعيد بها العربية دورها الذي سلب منها خلال المرحلة السابقة، في كل مرافق النشاط الإداري والاقتصادي والتجاري والسياسي والإعلامي، وفي القضاء والتشريع وكل أنواع المعاملات التي كانت تستعمل فيها العربية من قبل، وكذلك في كل القطاعات التي استحدثت من بعد (8).

وتتفقد هذا المشروع برُمته وسائر بُنوده ومراحل كان سيؤدي بلا شك إلى:

أ — إعادة العربية إلى مكانتها الطبيعية السابقة التي سلبت منها.

ب — الرفع من مستوى هذه اللغة وتحديثها وتنميتها وتطوير أساليب استخدامها ومناهج تدريسها. فاللغة، أية لغة، إنما تعيش بالاستعمال وتموت بالإهمال. ولو اتجه العرب والمسلمون معهم، إلى التمسك بلغتهم الأولى واستعمالها في كل المجالات (من تعليم بكل مراحل وتخصصاته، وإدارة واقتصاد وتجارة وتقنيات وصناعات ومرافق عامة) وتمسكوا بها دون تفريط، لكانت هذه اللغة قد بلغت درجة كبرى من التطور السريع والملموس، ولاستطاعت تدارك كل نقص مما فاتها أو لحقها خلال مراحل الضعف والانحطاط. ولكنهم انصرفوا عنها إلى العناية باللغات الأجنبية وخدمتها وبذل الجهد في إتقانها وتحصيلها والتنافس فيها، ثم عادوا ليُلموا العربية التي أهملوها وفرطوا فيها، بأنها لم يحصل لها من التطور ما حصل لغيرها من اللغات الأوروبية.

ج - استرجاع الهوية الثقافية واللغوية للمغرب. إذ إن استرجاع اللغة هو السبيل لاسترجاع الهوية بباقي عناصرها ومكوناتها.

د - تقوية التماسك الاجتماعي بين كل مكونات الشعب المغربي، لأن توحيد لغة التعليم والإدارة ومجالات العمل الأخرى، أمرٌ أساسيٌّ في تقوية اللُّحمة المجتمعية والسُّموُّ بروح الانسجام بين كلِّ الفئات وتذويب الخلافات الفكرية وما يترتب عليها من خلافات وصراعات أخرى سياسية وغيرها، كما هو أساسيٌّ في التقريب بين مظاهر سلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأذواقهم وأنماط تفكيرهم. إن في توحيد اللغة توحيداً للكلمة، وفي توحيد الكلمة توحيداً للصِّفِّ ورَصٌّ للبُنيان وتقوية للجُهد والطاقة، واختصارٌ للوقت، واقتصادٌ للمال، وتقريبٌ لشقَّة الخلاف والنزاع والفرقة. وفي ذلك كله طريقٌ واضحٌ نحو النجاح والنمو والتقدم والتطور، إذ لا يمكن لأمة أن تنهض وهي متفرقة الكلمة، متباعدة الذِّهنيات، مُوزَّعة الأنظار، مُتفاوتة الأفهام، مُتعارضة في المِشارب، متضاربة في الاختيارات، مُتنازعة في ترتيب الأولويات، وكلُّ ذلك بسبب الاختلاف في اللغة.

هـ - الإسراع في تنفيذ برنامج مَحَو الأُمِّية الشامل وتعميم التعليم. ومعلومٌ أن تعميم التعليم هو أساس التنمية الشاملة، وكلما زادت نسبة المُتعلِّمين في البلاد زادت نسبة النجاح في تحقيق النهضة والإقلاع. وهذا التعميم لا يمكن أن يتم وينجح، في أسرع وقت ممكن، إلا باللغة الوطنية. ومن أسباب تعثر تعميم التعليم والقضاء على الأمية رغم مرور أكثر من نصف قرن على استقلال المغرب، هو التخبُّط الذي عاشته بلادنا - ودولٌ مغاربيةٌ أخرى - طوال هذه الحقبة، وعدمُ الحسم في لغة التعليم، واللُّجوءُ إلى ازدواجية مُنهكة ومُكلِّفة وعَبَثِيَّة وكاذبة في التعليم والإدارة والإعلام وبقية المجالات.

أما كونها مُنهكة ومُكلِّفة للدولة التي تفرضها وللناس الذين تُقرَضُ عليهم على حدٍّ سواء، فيكفيها مثلاً على ذلك أن المُتعلِّمين يبذلون من الجهد والطاقة والوقت في تلقِّي العلوم والمعارف باللغة الأجنبية. أضعافاً ما يمكن أن يبذلوه فيما

لو أُتِيحَ لهم تعلّمها باللغة الوطنية، والدولة تُصرفُ في إعداد المُكوّنين والبرامج والكتب المدرسية والمراقبة والتقويم التربويين ... ونحو ذلك، من المال العام ما يُنهِكُ ميزانيتها ويُثقلُ كاهلها ويُبدّدُ ثروتها في أشياء كثيرة يمكن اكتسابها باللغة الوطنية دون هذه المشقة وهذا الإنفاق المُرهِق الذي لا ضرورةَ له. أما تطبيقُ الازدواجية غير المُحتاج إليها في الإدارة والإعلام، فهو يُكلّف الدولة من الأموال ما تستطيع به إنجاز أكبر المشاريع الضخمة التي تُخرج البلاد من التخلف والامية⁽⁹⁾.

أما كونها عبثية فبسبب ما نتجَ عنها من انخفاضٍ في مستوى التكوين والتحصيل وضعفٍ في مردودية العملية التعليمية وعجزٍ واضح عن القضاء على الأمية التي لا يمكن محاربتها بلغة أجنبية مع ما ثبتَ من كونها تكلفُ أضعافَ أضعافٍ ما تكلفه اللغة الوطنية من الوقت والمال والجهد والطاقة البشرية والمُعَدّات والتجهيزات....

وأما كونها كذبةً من الكذبات ووهماً من الأوهام ، فلأن الحقيقة أظهرت أن سياسة الازدواجية، كما تمّ نهجها — او فرضها — في منطقتنا بالمغرب العربي، لم تكن ازدواجية بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما كانت خُدعة استفادت منها الفرنسية دون سواها، وخدمةً باهظة التكاليف قدّمتها دولنا للغة الأجنبية، وأدّت شعوبنا فأتورتها الكاملة على حساب اللغة الوطنية. مع أن المستفيد الأول والأخير من انتشار الفرنسية، اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، هو الدولة الفرنسية. وكلُّ الدلائل تثبتُ أن الفرنسية قد حقّقت في مرحلة الاستقلال من الانتشار والتوسّع، ما لم تكن تحلُم بتحقيقه في مرحلة الاستعمار⁽¹⁰⁾، وأن فرنسا حقّقت وراء ذلك، من الأرباح والمكاسب المادية ما لم يكن يخطرُ لها على بال. فهي الدولة الوحيدة التي عرّفت كيف تحسّن استثمار لغتها في مستعمراتها القديمة.

ولقد كان من الشعارات التي رفعها أنصارُ الازدواجية في البداية، أن البلاد في حاجةٍ إلى لغةٍ أو لغاتٍ أجنبية حديثة للتفتح على العالم الخارجي والاستفادة من خبرته وتطوّره، واكتساب المعارف والعلوم والتقنيات التي لا يمكن اكتسابها باللغة العربية، وأن ذلك سيكون بصفة مرحلية؛ أي لمدة تصبحُ فيها العربية مؤهلة لتلقّن

بها تلك العلوم والمعارف. ولكن الذي حصل هو أن العربية تم تجاهلها ودفعها إلى الوراء ولم يُهتَم قط لا بتطويرها وتنميتها ولا بتأهيلها وإعدادها لتحل محل اللغة الأجنبية. بل وجدنا أن اللغة الأجنبية الوحيدة التي فرضت قد ازدادت سطوتها وهيمتها أكبر من ذي قبل، وتغلّلت في كل مكان، وبعد أن كانت مجرد أداة مرحلية، أصبحت واقعاً مستقراً وقدرأ محتوماً لا فكاك منه. وأصبح لهذا الواقع المفروض أنصاراً وأحزاباً وقوى ضاغطة يتكاثر أصحابها ويتناسلون ويسيطرون على مواقع النفوذ والقرار، ويدافعون عن بقائه واستمراره دفاعاً مُستميئاً، ويجعلونه جزءاً أساسياً من مكونات الهوية المغربية فيما يزعمون.

وعند تحليل وضع الازدواجية اللغوية في المغرب بين العربية والفرنسية، سنجدها من ذلك النوع الذي تهيم فيه اللغة الأجنبية هيمنة مطلقة، وتهمش فيه اللغة الوطنية وتُغَيَّب بشكل مُتعمد وممنهج. والفرنسية لم تمارس إقصاء حقيقياً وعنيفاً ضد اللغة العربية وحدها، ولكنها مارسته أيضاً ضد الأمازيغية من جهة، وضدّ التفتح الحقيقي على لغات أجنبية أخرى كالإنجليزية والإسبانية من جهة ثانية، فاحتكرت السوق اللغوية احتكاراً تاماً بإغلاق الأبواب كافة أمام كل لغة أخرى غير الفرنسية. وهذا معناه : أن الفرنسية، بالإضافة إلى كونها أداة إقصاء واحتكار، أصبحت أيضاً أداة انغلاق ومحاربة للانفتاح اللغوي والثقافي الحقيقي الذي يكون مفيداً إذا قام على أساس من التوازن وتكامل الوظائف بين اللغات المستعملة بما يضمن تعايشها واستمرارها جنباً إلى جنب، وأوجد حالة من المُناقضة والتناقض عوض الهيمنة والإقصاء. وهذا لا يمكن أن يتحقق بشكل ناجح ومقبول إلا حين يُحتفظ للغة الوطنية بدورها الأساسي الكامل في تلقين كل أنواع التعليم وتسيير الإدارة والمرافق الأخرى كافة. أما اللغات الأجنبية فتُدْرَس على أساس التخصص فيها لمن أراد، ويوكّل إليها دورُ التواصل مع الخارج والبحث العلمي الذي تنتوُّع لغته بتنوُّع مصدره، وتُسْتَعْمَلُ في التفتح على الثقافات الأخرى وفي كل غاية نفعية إضافية أخرى. وهذا يقتضي أيضاً فتح المجال أمام الناس لاختيار اللغة أو اللغات الأجنبية التي يريدون تعلُّمها والتواصل بها مع الخارج. أما أن تُفرض على الناس لغة أجنبية بعينها، وحدها دون سواها، وأن تحتكر هذه اللغة الأجنبية المفروضة كل

المجالات الحيوية في البلاد بما فيها التعليم والإدارة والتجارة والاقتصاد والإعلام، ويُسند دوراً هامشيّاً جداً للغة الوطنية، ويُدعى فوق ذلك بأن الغاية هي التطوُّر والتحديث والتقدُّم والانفتاح، فذلك هو الاستلاب التام والتبعية العمياء، وتلك هي الكذبة الكبرى.

و — بناء نهضة حقيقية، وتنمية شاملة، لأن بناء مثل هذه النهضة وهذه التنمية، لا يكون إلا باللغة الوطنية للمجتمع وليس باللغة الأجنبية. فالنهضة تُبنى على إقلاع اقتصادي وثقافي وتعليمي وتكنولوجي. وذلك لا يتم على الوجه الأكمل إلا باللغة الوطنية التي ينبغي أن تشيع بها المعرفة ويسهل نشر التقنيات وتعميم المعارف والمعلومات وتبسيط المفاهيم وإيصالها إلى كل الطبقات وسائر الفئات الاجتماعية. وهذا ما فعلته كل الأمم التي وصلت إلى تحقيق نهضتها. وهذا ما كانت عليه الأمة العربية الإسلامية يوم كانت لغة العلم والثقافة والفكر فيها واحدة، وهي اللغة العربية. ثم إن التنمية الحقيقية لا تتم إلا بتنمية روح الإبداع وتوفير أسبابه، والإبداع لا يمكن أن يحصل عند الأشخاص والأمم إلا بلغتهم الوطنية لا بلغات يتبنونها أو تُفرض عليهم.

ز — تعميق فكرة الوحدة العربية والإسلامية بتقوية اللحمة الثقافية والدينية والروحية والحضارية والتاريخية معها، وتمتين موقع المغرب بين أشقائه أبناء الدول العربية الإسلامية الأخرى. وبناء علاقات متوازنة وندية مع فرنسا وغيرها من الدول الأجنبية على أساس تبادل المنافع والمصالح بدون تبعية فكرية أو سياسية أو اقتصادية.

لماذا أخفق المشروع؟

أما لماذا أخفق مشروع الاستقلال الثقافي واللغوي في المغرب ودول مغاربية أخرى، أو على الأصح لماذا أجهض وأُفشل؟ فيمكن أن نقول إن هناك عوامل متضافرة تعاونت وتواطأت على تحقيق هذا الفشل، منها ما هو خاصٌ بأوضاع المنطقة المغاربية، ومنها ما هو عامٌ يشمل الوطن العربي كله. ومن هذه الأسباب الخاصة والعامة نذكر:

1- أن تركة المرحلة السابقة من تلك الأفكار التي خلاصتها مُحاربةُ العربية والسَّعي لإضعافها والقضاء عليها وإقصائها من مختلف المجالات، قد تمَّ ترحيلُها ونقلُها إلى هذه المرحلة، وتوريثُها لأوصياء اختيروا لتنفيذها والسَّهر على الاستمرار في تطبيقها إتماماً « للغزو الروحي » الذي تحدَّث عنه "صُورِدُون" سابقاً. والمتأملُ في تاريخ مرحلة ما بعد الاستقلال إلى الآن سيجد أن كل الأفكار التي خطَّط لها الاستعمارُ في مجال السياسة اللغوية قد نجحَ وحقَّقَ الكثيرَ من أهدافه، سوى مسألة واحدة وهي كتابة العربية بحروف لاتينية، وإن كانت الدعوةُ إليها لم تَمُتْ بعدُ. على أنه — في المقابل — حقَّقَ نجاحاً كبيراً في حمل كثير من الشعوب الإسلامية على كتابة لغاتها بالحرف اللاتيني بعد أن كانت من قبل تكتبُها بالحرف العربي (ومنها تركيا وبلدان أخرى في آسيا وشرق أوروبا وأغلبية البلدان الإفريقية المسلمة).

2 — أن الاستعمار استطاع رغم قصر مدة استيطانه في البلاد التي احتلَّها، تكوين (حزب)⁽¹¹⁾، أو قوة ضاغطة شديدة التأثير، من أبناء المستعمرات المتعاونين والمتعاطفين والمستفيدين من الوضع الجديد وما يخوِّله لهم هذا الوضع من منافع ومصالح لم يكونوا يحلمون بها، فاستأنمهم على هذه الوديعة من أفكار المرحلة الاستعمارية السابقة التي أصبحوا فيها شركاء ومُساهمين، لأنها تحوَّلت بالفعل إلى ما يشبه شركة استثمارية يُسهمُ في رأسمالها طرفان: الاستعمارُ صاحب الامتياز، ومساهمون آخرون من أبناء الوطن استأنمهم على احتضانها وحمايتها والدفاع عنها والمحافظة عليها. وما دامت المصلحة واحدة، والمنفعة تعمُّ الجميع، فقد عملوا بكل طاقاتهم على إنجاحها واستمرارها، بل وتتميمتها والاجتهاد في الإضافة إليها. وأغلبُ هؤلاء الذي كونوا هذه (الشركة ذات المنفعة المشتركة) كانوا من تلك الفئة التي تعلَّمت اللغة الأجنبية في مدارس البعثة الفرنسية أو مدارس تابعة لجمعيات التنصير، أو في مدارس الأعيان الخاصة التي كان الفرنسيون يحرصون على ملئها بأبناء كبار موظفي الدولة من وزراء وباشاوات وقوَّاد وشيوخ وكبار التجار ووُجَّهَاء البلد. فمن هؤلاء تكوَّنت طبقةٌ جديدة من المتعلِّمين الذين أعدَّتهم فرنسا في البداية، ليكونوا

مُعاونين لها في تسيير شؤون البلاد المُستعمَرة، ثم لما وثِّقت بالمُخلصين منهم سلَّمت لهم مقاليدَ الأمور، وأوكلت إليهم — حين اضطرَّت للمغادرة — أمرَ متابعة السياسة التعليمية واللغوية والثقافية التي رُسمت خرائطُها وأعدَّت برامجُها من قبل.

وهذه الظاهرة التي تحدثنا عنها، ظاهرةُ توريث المشروع الثقافي الاستعماري لمن يرعاه من أبناء المستعمرات القديمة، تكاد تكون طبيعةً من طبائع الاستعمار، ولازمةً من لوازمه وخاصيةً من خصائصه. فالاستعمار عودنا أن لا يقبل مغادرة الأوطان إلا بعد أن يصبح واثقاً من نجاحه في تنفيذ خطة ما بعد المغادرة، ويتأكد له أن تكلفته تنفيذ المخطّط، وهو خارج البلاد المُحتلّة، أقلُّ بكثير من تكلفته بقاءه داخلها. وأن تنفيذ الخطة حين يتمُّ على أيدي فئة من أهل البلاد خيرٌ وأنجعُ ألف مرة من التنفيذ الذي يُوقَّعه بيده مباشرة. فالطريقُ غيرُ المباشر أسلمٌ وأقلُّ كلفة. وهذه السياسة (تنفيذ الخطة من الخارج وببِد أعوانٍ من الداخل) لم تُطبَّق في المغرب وحده، بل في كل البلاد التي خضعت للاستعمار سابقاً وفي مقدّمتها كلُّ البلاد العربية والإسلامية. وهذا ما أراد الاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان فعله أيضاً. فالاستعمارُ ماهرٌ في شقِّ الصُّفوف على قاعدة ابتكار منافع يُتنازَعُ عليها ومصالح تُقَطَّعُ الأعناقُ دونها. وقد كان سهلاً عليه ربطُ لغته بمصالح الناس ومنافعهم التي يتنازعون عليها، من وظائف ومناصب وامتيازات لهم ولأبنائهم.

3 — أن شريحة واسعة من النخبة المتعلّمة من جيل ما بعد الاستقلال — ونحن نتكلم هنا عن حالة بعض دول المغرب العربي — ليس لها ارتباطٌ مصلحيّ مباشر مع فرنسا كما هو حال الفئة السابقة، لكن الفرنسية أصبحت لغتها الأولى، ومكوّناً أساسياً من ثقافتها وحياتها اليومية وانشغالاتها المهنية وعلاقاتها الخاصة، ومن ثم صار دفاعها عن الفرنسية — لغة وثقافة — وتشبُّثها بها، يشكّلان دفاعاً عن وجودها الشخصي وعن ثقافتها وجزء هام من مصالحها، وذلك نظراً لارتباط هذه الفئة ارتباطاً عضويّاً بتلك اللغة وأصحابها. وأما العربية التي لا تعرف هذه الفئة منها سوى الدارجة أو بعض منها، فلا يمكن أن تكسب تعاطفها أو اهتمامها لأنها لا تحتاج إليها في أعمالها وممارسة مهنتها

وعلاقتها وشؤون حياتها الخاصة والعامة، ولا سيما أن الفرنسية مستعملة في كل مجال، ومحترمة في كل مكان، والدارجة تفي بمهمة التفاهم مع كافة فئات المجتمع، وتقوم بتكملة دور الفرنسية في التواصل. أضف إلى ذلك أن هناك علاقة روحية قوية تنشأ عادة بين المتعلم واللغة التي تعلم بها والثقافة التي تمثلها هذه اللغة. فالمتعلم بهذه اللغة أو تلك لا بد أن يجد في نفسه انجذاباً نحوها وتعاطفاً خاصاً مع ثقافتها، وهذه العلاقة تختلف طبيعتها من لغة إلى أخرى. ومن ثمَّ سنجد أن الثقافة الفرنسية التي تنشأ عليها مثل هذه الشريحة التي تكلمنا عنها ثقافة علمانية لا دينية، بحكم أن نظام التعليم الفرنسي والغربي عامة نظام قائم على اللادينية، بينما العلاقة بين المتعلم بالعربية واللغة التي تعلم بها علاقة روحية مختلفة، بحكم أن العربية لغة ذات حُولة دينية قوية لأنها لغة القرآن والسنة والتراث الإسلامي الغني الضارب في جذور التاريخ. فحتى المسيحي الذي يُتقن العربية إتقاناً ستجد في ثقافته وتكوينه العميق أثراً من روح هذه اللغة وقيم مجتمعتها الإسلامي.

وهكذا لم يعد الصراع الثقافي واللغوي في مرحلة ما بعد الاستقلال — بناءً على ما سبق — صراعاً مباشراً بين أهل البلاد والاستعمار، وإنما تحول إلى صراع بين فئتين من المجتمع نفسه، كل فئة تنتمي إلى مدرسة فكرية ولغوية وثقافية مختلفة، وذات مرجعية مغايرة: هذه عربية اللغة والثقافة والتوجه، وتلك فرنسية اللغة والثقافة، غربية الهوى والتوجه، والأولى أسهمت في تكوينها مدارس تعليم عربي أصيل متوارث، أو تعليم عربي عصري عمومي متفتح على اللغات الأجنبية لكن ذي توجه وطني مستمد في الأساس من توجه المدارس الحرة التي أسسها رجال الحركة الوطنية والمتعاطفون معهم في مرحلة الحماية ومقاومة الغزو الثقافي الأجنبي، ومن بعض المدارس المزدوجة اللغة التي كان لتلاميذها ارتباط بعمل الحركة الوطنية (كثانوية المولى إدريس بفاس وثانوية المولى يوسف بالرباط)، والثانية أسهمت في تكوينها وتشكيل عقليتها وتوجهاتها الفكرية مدارس أخرى أجنبية. وأصحاب هذا الاتجاه الثاني أغلبهم كانوا واقعين — كما قلت — تحت تأثير نوعية التعليم الفرنسي العلماني الذي تلقوه، بما فيه الكراهية التي غرست في

عقولهم وقلوبهم منذ نعومة أظفارهم لكل ما هو عربي اللغة والثقافة والانتماء. والحكم هنا عام لا يستثنى منه إلا عناصر قليلة نجت بدرجات متفاوتة من هذا التأثير السلبي لأسباب وظروف معينة.

4 — أن الحزب (أواللوبي) الفرنسي نجح — بحكم سيطرته على مراكز اتخاذ القرار — في إبعاد المعربين عن تولي كل مسؤولية مباشرة ذات أهمية ينتج عنها توجيه مستقبل السياسة العامة للبلاد، بدعوى أن تسيير الدولة الحديثة يحتاج إلى التمكن من الفرنسية، وأصبح إتقان الفرنسية — لا العربية — شرطاً ضرورياً للولوج إلى وظائف الدولة والقطاع العام. وكان ضرورياً أن يؤدي تهميش المعربين وإبعادهم عن مراكز القرار مباشرة إلى تهميش العربية وتخفيض قيمة عملتها في سوق الشغل، فهي لم تعد لغة أكل الخبز والترقي في المناصب وتولي المسؤوليات وإدارة الأعمال والشركات، لأن كل ذلك أصبح مشروطاً بإتقان اللغة الأجنبية، وهكذا بدأ الناس من تلقاء أنفسهم يسحبون أبناءهم من مدارس العربية ومدارس القطاع العام، ويجرؤونهم جرأً إلى مدارس البعثات الأجنبية، ثم إلى مدارس الاستثمار الخاص (أو المدارس الخاصة) التي أصبحت تتنافس فيما بينها على تقوية اللغة الأجنبية (والفرنسية تحديداً) على حساب العربية. ولا سيما بعد أن قدمت الدولة امتيازات عديدة لتشجيع عملية تخصيص التعليم في العقود الأخيرة، فأصبح لها دور كبير في تراجع تدريس العربية وتهميشها.

5 — أن الضغوط الأجنبية بجميع أشكالها وثقلها الاقتصادي والسياسي والمادي والمعنوي، مורست بمنتهى القوة والفعالية عند كل خطوة كانت بلداننا تحاولها أو تفكر في الإقدام عليها لصالح العربية. ففرنسا على سبيل المثال كانت تلوح كل مرة بأوراق كثيرة كلما أحسّت برُجحان كفة التعريب. في المعركة التي خاضتها بعض الشعوب المغاربية طوال ستين عاماً من الاستقلال، ومنها ورقة توقيف المعونات التقنية والاقتصادية والامتيازات الممنوحة لبعض الفئات أو القطاعات، وفرض عقوبات من كل نوع، وتأليب عناصر معارضة للنظام، وتحريك الفتنة الطائفية والحرب الأهلية، وفتح ملفات كانت تُمسكها على

شخصيات من ذوي القرار وأصحاب الكراسي، والاصطفاف إلى جانب الخصوم في كل قضية وطنية مصيرية... وغير ذلك من أساليب الضغط المعروفة. وكان الدرس الذي تلقته الجزائر حين حاولت تفعيل قرار التعريب أوائل التسعينيات من القرن الماضي، والفتنة التي أضرمت نارها في البلاد خير مثال حي على ما نقول. فكل الشواهد والتحليلات أثبتت يومذاك أن يد فرنسا لم تكن بعيدة عما وقع وأدى بالبلاد إلى ما أدى إليه. والضغط الغربية في عالمنا العربي والإسلامي وفي كل بقعة من العالم، ما تزال فعالة وقوية وواضحة هذه الأيام في كل المجالات وفي كل ما يجري أماننا من أحداث وأحوال (حالة العراق وإيران وسوريا والسودان ودول الخليج وتركيا وباكستان وأفغانستان... والقائمة طويلة). فالغرب الذي ما زال يتحرك بشكل استعماري سافر، أصبح يبني كل سياسته الخارجية على الضغط، وفي حالة عدم جدوى الضغط يضطر للتدخل المباشر.

6 — أن القرار السياسي في مجال التخطيط اللغوي ظل دائماً في يد الفئة الخاضعة للضغوط الداخلية والخارجية التي ذكرنا، أو للفئة التي تعدّ من أنصار المشروع الفرنكفوني. ومسألة التعريب لم تكن تتوقّف على شيء أكثر من توقّفها على قرار سياسي لم يكن بيد من يدافع عن العربية والتعريب.

7 — أن الحركة الفرنكفونية قد نظمت نفسها — في هذه المرحلة — تنظيماً قوياً محكماً تتوفّر له كل وسائل النجاح من مال وعتاد ونفوذ وضغوط وإغراءات ووسائل إعلام متنوّعة ومتغلّغة، وذلك منذ انطلاقها في بداية الستينيات على يد مجموعة من حُماة الثقافة الفرنسية (أمثال سنغور وبورقيبة)، وبدعم رسمي هائل من فرنسا. وقد تطوّرت فكرة الفرنكفونية عبر الخمسين سنة الماضية لتصبح أخطبوطاً خطيراً تمتدّ مخابئه إلى كل مجال من مجالات الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون العالم، ويحشر أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه. لقد أصبح منظمة دولية ضخمة، بميزانية هائلة وخبراء من كل أنحاء العالم، وحضور دائم في كل مكان. ومن أهم أهداف هذه الحركة التدخل في رسم السياسات اللغوية والثقافية لبلدان كثيرة

من العالم الضعيف وخاصة مستعمرات فرنسا القديمة، ومقاومة كل فكرة تراجُم وجود اللغة الفرنسية أو تُهدَّد مصيرها أو تقف في وجه تغلغلها. وفي المقابل تقديم العون التقني والمالي لكل فكرة أو سياسة تُروِّج للثقافة أو اللغة الفرنسيَّتين. ولقد مضت الحركة الفرنكفونية تُحرزُ من الانتصارات ما جعلها تصل إلى حد إقناع عدد من الفرنكفونيَّين المغاربيَّين بالمُجاهرة بضرورة اعتبار الفرنسية مكوناً أساسياً من مكونات الهوية الثقافية واللغوية لبلداننا.

8 — أن المعركة بين العربية والحركة الفرنكفونية انتهت بفرض ازدواجية لغوية (فرنسية عربية) أضعفت وجود العربية وقوّت تدريجياً مركز الفرنسية التي مارست إقصاءً ضد اللغات الأجنبية الأخرى التي يمكن أن يُستفاد منها، وفرضت على الناس أن ينظروا إلى العالم من نافذة واحدة وهي نافذة الفرنسية وإغلاق سائر النوافذ والأبواب الأخرى. فأصبحت هذه اللغة الأجنبية المفروضة أداة انغلاق ثقافي وإقصاء للعربية وغيرها من اللغات كما قلتُ سابقاً. لقد زادت الازدواجية من تعقيد الإشكال اللغوي في المغرب العربي ولم تعمل على حلّه كما كان يُظن، وحقّقت انتصاراً للغة الأجنبية على اللغة الوطنية، فأصبحت العربية نتيجة ذلك، بمثابة لغة ثانية في بلادها، وأصبحت الفرنسية (وهي لغة أجنبية يُعمل بها خارج الدستور والقانون) واقعياً وعملياً هي اللغة الأولى والرسمية التي لا يتمُّ شأنُ ذو بال بدونها. وهكذا أُسندت للفرنسية كل الوظائف والمهام الأساسية والحيوية وفي مقدمتها المعاملات الإدارية والاقتصادية والتجارية وإبرام العقود وإدارة الشركات وتعليم المواد العلمية والتقنية من الابتدائي إلى العالي (قبل تعريب الابتدائي والثانوي بعد معارك طويلة) ⁽¹²⁾. أما العربية فأُسندت لها أدوارٌ ثانوية كتعليم المواد الأدبية والشرعية (قبل مرحلة تعليم العلوم في المرحلة الأساسية والثانوية)، وتأطير الحقل الديني وحِصَص من مجال الإعلام.

ولقد بيّنت الدراسات العلمية الرّصينة والموضوعية، كثيراً من سلبات الازدواجية اللغوية على مستويات متعدّدة، منها إضعاف اللغة الوطنية وتهميشها،

ومنها تدني مستوى التعليم وضعف مردوديته، ومضاعفة نفقاته وارتفاع تكلفته، ومنها تقلص الإبداع والابتكار وهما أساس التنمية، ومنها الأخطار النفسية على المتعلم الذي يعيش حالة قلق واضطراب وفصام ثقافي وازدواج في الشخصية، ومنها التفكك الذي يحدث في النسيج المجتمعي، وما لذلك كله من مضاعفات على التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وفي مقابل ذلك حاول دعاة الفرنكفونية والازدواجية الكاذبة تشويه فكرة التعريب، بإشاعة كثير من الأوهام والتزوهات، نذكر منها على وجه الخصوص :

أ - أن التعريب انغلاق على الذات ورفض للتفتح وتعلم اللغات الأجنبية والفرنسية خصوصاً، وهذه مغالطة كبيرة وضحناها ورددنا عليها في أكثر من مناسبة⁽¹³⁾، وقلنا إن التعريب ليس معناه معارضة تعلم اللغات الأجنبية، لكنه دعوة إلى تمكين المواطن من ممارسة حقه الدستوري في أن يجعل لغته الوطنية الأولى هي اللغة الأساسية في التعليم وتلقين المعارف والعلوم، أولاً. وفي أن يُعطى الحق القانوني والإنساني ثانياً في اختيار اللغات الأجنبية التي يريد تعلمها أو تعليمها لأبنائه من بين اللغات الحية الأكثر نجاعة وفائدة، لا أن تفرض عليه لغة أجنبية واحدة (وهي الفرنسية دون غيرها)، ولا سيما بعد أن تراجع ترتيب الفرنسية وأهميتها في سلم اللغات العالمية إلى درجة متأخرة، ولم تعد لغة العلم والتقنية والعولمة كما هو معروف. ومن هذه الزاوية يكون دُعاة التعريب هم الأكثر انفتاحاً على اللغات الأجنبية وأشدّهم حرصاً على إتاحة الفرصة لتعدد حقيقي لا وهمي، يكون مركز السيادة فيه للغة الوطنية، وتكون كل اللغات الأجنبية الأخرى متاحة أمام الراغبين فيها دون تفضيل أو احتكار لإحداها على حساب الأخريات. فنحن ندعو إلى فتح كل النوافذ وهم يدعون إلى إغلاقها إلا نافذة واحدة وهي الفرنسية. وحين لا تطبق التعددية بالمفهوم الذي قلناه، فذلك معناه أن الهيمنة والغلبة ستظلان للفرنسية وحدها. وهذا ليس من التفتح ولا من الديمقراطية الثقافية في شيء.

ب — أنه مدخل للإرهاب ومطيّة للتطرّف الديني. وهذا ما أصبح بعضُ دعاة الفرنكفونية يلوّحون به في الفترات الأخيرة، ويحاولون أن يجعلوا منه فزاعةً لتخويف المسؤولين وتحذيرهم من اللغة العربية. ولستُ أدري كيف تصبح اللغة الرسمية في البلاد العربية كلها أداةً لنشر الإرهاب والتطرّف؟ وهل معنى ذلك أن كل حركة إرهابية أو متطرّفة في العالم تكون اللغة العربية هي المسؤولة عنها ولو في صربيا أو قرغيزيا أو تركيا أو غيرها من بقاع الأرض؟

ج — أنه — في نظر بعضهم — حركة تهدف إلى القضاء على الأمازيغية. ولقد بلغ التطرّف بفتنة من الناس إلى حد اعتبار العربية مجرد لغة قومية للعرب وحدهم ولا تهمّ غيرهم، وأن الداعين لها كلّهم من القوميين العرب أو المتشبعين بأفكارهم والمُعادين لبقية القوميات ومنها القومية الأمازيغية. ومن ثمّ أصبحنا نسمع ونرى من ينادي بمعادة العرب أينما كانوا ووُجدوا، والترويج لفكرة العرق والأصل والفصل، التي عفى عليها الزمان، واعتبار القضية الفلسطينية قضية لا تهمّ المغاربة. وربما بلغ التطرّف إلى حدّ رفض الدين الإسلامي باعتباره ديناً جاء به العرب.

وهذا كلّهُ وهمٌ كبيرٌ وخطيرٌ سبق أن بيّنته ووضحته في كثير من المناسبات والنصوص التي نشرتها. وخلاصة الأمر أن الدعوة للتعريب لم تكن يوماً ضد الأمازيغيات، ولكن ضد الحركة الفرنكفونية التي بسطت هيمنتها الكاملة على كل المجالات والفضاءات، وأزاحت العربية وكلّ اللغات الوطنية الأخرى في البلاد التي سيطرَ عليها الاستعمار الفرنسي، واحتلت مكانها التاريخي منذ بداية المرحلة الاستعمارية. فالعربية لغةٌ وطنية راسخة الجذور منذ قرون، ولن يكون هنالك استقلالٌ لغوي وثقافي ما دامت اللغة الأجنبية هي المتحكّمة واللغة الوطنية الأولى مُبعدةً ومهمّشة. وأما الأمازيغيات (وهي لهجاتٌ عدةٌ تحاول اليوم أن تتوحد وتنهض وتتحول إلى لغة معيارية) فلها الحق في الوجود والاستمرار بجانب العربية، مثل بقية لغات الشعوب الإسلامية الأخرى، ولكل وظائفه وأدواره التي يمكن القيام بها في تعايش وتكامل — كما كان في الماضي — لا في تنافر وتحرّاب وصراع لن تستفيد منه سوى الفرنسية وحدها.

وفي اعتقادي الراسخ، أنه لو قُدِّرَ للعربية أن تنهزم في معركتها ضدَّ الهيمنة الفرنكفونية، فإن ذلك لن يؤدي حتماً — كما قد يتوهم البعض — إلى انتصار الأمازيغيات على الفرنسية في يوم من الأيام ولا حتى في الوقوف أمامها ندّاً لنـد. إنما الغلبة ستكون في هذه الحالة للفرنسية وحدّها كما قلتُ. فمن المكر الشديد للحركة الفرنكفونية وواسع حيلتها أنها أقنعت فئةً من الناس باصطناع معركة بين الأمازيغية والعربية، وبين الفصحى والعامية، والغاية في النهاية هي إيجاد حلفاء للتغلب على العربية التي ظلت طوال التاريخ تعتبر الأمازيغية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية شقائق لها، تتكامل معها في وظيفة الإبلاغ والتواصل والتفاهم، ولا تتعارض أو تتناقض فأحرى أن تتصارع وتتقاتل. ولقد قلنا وبينّا في مناسبات سابقة، أن العربية، بالنسبة للمسلمين كافةً، هي اللغة الموحّدة لشُعوبهم، وأداة للتواصل بينهم جميعاً على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، وهي لغة قرآنهم وتراثهم وتاريخهم المشترك. فهل يكره المسلمون ذلك؟ لهذا السبب إذن، نحن نحب أن نسمّيها لغة القرآن⁽¹⁴⁾ أو لغة المسلمين، لأنها رمزٌ من رموز الوحدة والتقارب بين المسلمين. ولو سألنا التاريخ، عمّن نشر الإسلام ولغة القرآن في أنحاء الأرض كافة، لوجدنا أن أصحاب الفضل الأكبر في ذلك هم الأعاجم. ولو سألنا أهل المغرب عمّن نشر الإسلام ولغة القرآن في الغرب الإفريقي وفي الأندلس وجنوب أوروبا، لوجدنا أن أصحاب الفضل في ذلك هم البربر الذين فهموا الإسلام على حقيقته فبلغوا رسالته وأحبوا لغته بدافع ذاتيٍّ وليس بقوة مفروضة خارجية. أليس في الناس من يريد العودة إلى قراءة التاريخ؟ أليس فيهم من يريد السّعي إلى الحقيقة عوضَ الاشتغال بالأغاليط والأوهام؟

9 — ولا شكّ عندي، بعد هذا، في تدخل أيادٍ أجنبية من مصلحتها تقويضُ الكيانات العربية والإسلامية ونخرُ أجسامها وإنهاكُ قواها وتفتيتُ وحدتها وتمزيقُ تماسكها، لتظلّ في مرحلة الضّعف باستمرار. فلا شكّ — مثلاً — في وجود أيادٍ صهيونية وأخرى أمبريالية استعمارية، في كل الحروب الطائفية والعرقية التي تعجُّ بها الساحة العربية والإسلامية من أقصاها إلى أقصاها، وهذه الحروب الطائفية والعرقية لا بد أن تنتج عنها وتصاحبها حروبٌ لغوية وثقافية . وقد

تكون الحروب والصراعات اللغوية والثقافية المصطنعة هي المدخل الذي يستعمل لإشعال الحروب الطائفية والعرقية، والغاية واحدة، وهي التفتيت والتمزيق والإنهاك والإضعاف.

10 — أن حالة الضّعف والهوان التي سقط فيها الوطن العربي خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الحالي، وسلسلة الهزائم والنكسات التي أصابته على المستوى العسكري، وخاصة في مواجهة إسرائيل وغيرها من القوى الغاشمة التي استباححت العالمين العربي والإسلامي، وما تبع ذلك من انهيار ما يسمى بالنظام العربي وعجزه التام عن التحكم في رسم اختياراته، بالإضافة إلى التخلف الاقتصادي والتقني "التكنولوجي" والأوضاع الاجتماعية المزرية، والتبعية الثقافية المطلقة للغرب، وانتهاءً بعودة الاستعمار الاستيطاني لاحتلال أجزاء من العالمين العربي والإسلامي، وغير هذا من الأمور التي يطول شرحها عند محاولة تشخيص حالة الواقع العربي الإسلامي. كل ذلك أدى إلى إصابة الشعوب العربية الإسلامية بصدمة عنيفة وردّ فعل قويّ ولّد الإحباط واليأس. وقد سيطرت هذه الحالة الشعورية الخاصة على النفسية العربية وجعلتها تمرّ بمرحلة شديدة من الاكتئاب وفقدان الثقة والانهازمية وشعور حادّ بالضعف والهوان والخزي والعار.

هذه الحالة المتأرّمة التي كثيراً ما يغفل الناس عنها، كان لها تأثير فوق المعتاد، فيما أصبحنا نراه من كره عميق لذواتنا المتعفّنة ونقزّر من رؤية أحوالنا المتسّخة، وأوضاعنا بمآسيها اليومية المتكرّرة، مما أدى بالإنسان العربي المهزوم المنكسر إلى فرار نحو ذلك الأجنبي والارتواء في أحضانه، انبهاراً أو انتحاراً، لا أدري. فما هذه الكراهية التي أصبح بعضنا يجاهر بها ولا يخفيها ضدّ لغته وثقافته، وما هذا التعلّق الغريب بلغة الآخر وثقافته، إلا مظهر من مظاهر ذلك الهروب الكبير من الواقع المظلم المتخلف والمهين الذي سقط فيه الوطن العربي، وأفقد الناس الثقة في أنفسهم وأمّتهم وتاريخهم وحضارتهم وثقافتهم ولغتهم وكلّ ما يمتّ إلى عالمهم المنهار بصلة.

11 — وأخيراً، جاء دورُ العولمة ليُضيف إلى كل ما سبق، سبباً آخر لانصراف أبناء الأمة العربية عن ثقافتهم ولغتهم وانسلاخهم عن هويتهم. أليست العولمة تدعو إلى محو الخصوصيات والقضاء على الهويات والثقافات المحليّة والإقليمية لتحلّ محلّها ثقافةٌ وقيمٌ موحّدة ولغةٌ عالمية واحدة؟ أليست العولمة هي سيطرةُ القوة الكبرى على كلّ الشعوب وإخضاعها لنظام اقتصادي وسياسي وثقافي واحد تابعٍ لمركز تحكم تلك القوة العظمى؟ وما دام الوطن العربيّ والإسلامي على ما هو عليه من الضعف والتفكك والتبعية كما قلنا، فلا فكاك له من الوقوع بين مخالب هذه العولمة إذا هو لم يتنبّه لما يُحْدقُ به من أخطار ويستجمع القوى للصمود والمقاومة من أجل البقاء والاستمرار.

واقع العربية اليوم:

واليوم، بعد مضيّ أكثر من قرن من معاناة العربية وصراعها المرير ضد خصومها وما واجهته من تحدّيات وعقبات، لنا أن نتساءل: ما ذا تحقّق لها وماذا لم يتحقّق؟

لا شك أننا سنكون متشائمين وغير مُنصفين إذا قلنا إن العربية لم تحقّق شيئاً طوال المدة التي ذكرتها. ولئن نكون مُنصفين أيضاً إذا قلنا عكس ذلك. ولا شك في أن هنالك إيجابياتٍ وسلبيات.

أما الإيجابيات، فهي وإن كانت أقلّ من السلبيات، إلا أننا، مهما بدا لنا الواقع الحالي مظلماً ومُجحفاً في حق العربية، لا نستطيع أن نتجاهل الإيجابيات الآتية:

— أن حال العربية من حيث تطوّرها ونموّها، في هذه المرحلة من بداية القرن الحادي والعشرين، هي أحسنُ وأفضلُ بكثير من حالها في بداية القرن التاسع عشر عشية بدء النهضة الحديثة. بل إن المقارنة بين الوضعين اليوم تُظهر بوضوح ما بينهما من تباعد. فقد انتشرَ التعليمُ عموماً، وتعلّمَ العربية خصوصاً بنسبة كبيرة في الأقطار العربية والإسلامية، فتوسّعت بذلك جغرافيةُ هذه اللغة وحجمُ مُستعمليها على ما بها من عللٍ وأمراض، وظهرت الطباعةُ وازدهرت

فكانت على العربية نعمةً وفتحاً مُبيناً بما نُشرَ بها من آلاف المطبوعات والكتب والصُّحف والمجلات في مختلف العلوم والفنون وفي شتى أقطار الوطن العربي، وظهرت الصحافة المكتوبة أول الأمر فكان لها دورٌ كبيرٌ في تطوير العربية وتحديثها وانتشارها، وكان لها فضلٌ وأيُّ فضلٍ في بروز قائمةٍ من أسماء كبار الكتّاب والأدباء الذين انتفع الناسُ بكتابتهم وأساليبهم الجديدة. ثم جاء دورُ الإعلام المسموع والمرئيّ فانتقلت بواسطته العربية منطوقةً إلى كل بقاع العالم. ثم تلا ذلك كله عصر جديدٌ للمعلومات والشبكة العنكبوتية، فكانت العربية من بين أهم اللغات التي استفادت من هذه الثورة الإعلامية والمعلوماتية وإمكاناتها الكبيرة. ونشأت منظمات دولية وإقليمية سياسية وثقافية، فصارت العربية في عدد منها لغةً رسمية (الأمم المتحدة وكل فروعها والمنظمات والهيئات الرسمية التابعة لها — الاتحاد الإفريقي — منظمة المؤتمر الإسلامي — منظمة اليونسكو — منظمة الإيسيسكو.. إلخ).

— أن الإعلام بكل أشكاله وبكل ما يبثُّه من برامج بالفصحى، قد أسهم بدور كبير في التقريب بين العامّيات فيما بينها من جهة، وتقريب الفصحى من العامية من جهة أخرى. وهذا مكسبٌ كبيرٌ للعربية. ولو توحّدت السياسة الإعلامية في الوطن العربي، وقرّرت تفصيحه كلياً لا جزئياً، لكان وضعُ العربية قد عرف قفزةً عالية من الانتشار والتوحد والقضاء على الدّوارج والعاميات المحليّة.

— أن المجامع العلمية واللغوية العربية (وهي اليوم ثمانية) وكذلك الجامعات ومراكزُ البحث الكثيرة الناشئة بالعالم العربي، فضلاً عن الجهود الفردية الخاصة، قد أغنت العربية المعاصرة وأمدّتها بعدد كبير من المصطلحات العلمية والتقنية في كل المجالات، ولا تحتاج هذه المصطلحات التي تُعدُّ اليوم بالآلاف، إلا أن تعمّم وتروّض على الاستعمال والانتشار.

— أن العربية الحديثة استفادت كثيراً من ترجمة آلاف الكتب الأجنبية إلى العربية، سواءً في تجديد أساليبها وتراكيبها، أم اقتراض، من ألفاظها ومُصطلحاتها، كلَّ

ما هي في حاجة إليه. ومع ذلك فإن ما تمّ نقله إلى العربية من اللغات الأخرى ضئيل جداً قياساً إلى ما هو مطلوب ومحتاج إليه.

أما السّلبات، فهي كثيرةٌ كما قلنا، وسنكتفي بحالة المغرب نموذجاً، مع أن كثيراً مما نذكره عن وضع العربية في المغرب موجودٌ مثله أو قريبٌ منه في منطقة المشرق. ونلخصُ ذلك في النقاط الآتية:

1 — توسّع خطيرٌ للغة الأجنبية، ويتجلى ذلك في:

أ — هيمنة اللغة الفرنسية على أغلب المجالات الحيوية وجُلّ الإدارات التابعة للقطاع العام. أما القطاع الخاص من شركات تجارية وبُنوك ومقاولات صُغرى وكبرى ومعاملَ ومصانع ومركّبات تجارية وسياحية وفندقية ومصحّات وصيّدليات وسواها، فلم يبقَ فيها نصيبٌ ولو ضئيلاً لاستعمال الحرف العربي بأية صفة من الصفات إلا في حالات نادرة جداً. والأخطرُ من ذلك هيمنةُ الفرنسية، التي توسّع استعمالُها ليشمل حتى أصغر المقاولات والأوراش الحرفية البسيطة التي ليس لها أيُّ تعاملٍ مع الأجانب أيّاً كان نوعُهم.

ب — استعمال اللغة الأجنبية والحرف اللاتيني في كتابة لافتات الأزقة والشوارع والمَحلات التجارية والمقاهي والمطاعم ولوحات مكاتب الأطباء والمحامين والشركات والمقاولات وغيرها من الحرف والمِهَن. وفي أحسن الأحوال تجد هذه اللافتات واللوحات مكتوبةً بالفرنسية والعربية بناءً على تعميم الازدواجية اللغوية المفروضة خرقاً للدستور والقانون. على أن الغالبية الساحقة من الناس، حتى البُسطاء منهم، لا تُطَبع بطاقات زيارتها إلا بالحرف اللاتيني واللغة الفرنسية تحديداً.

ج — احتكار مجال إبرام العقود الخاصة والعامة في كلِّ المعاملات تقريباً باللغة الفرنسية وحدها، سواءً في القطاع العام أو الخاص. ويدخل ضمنها طبعاً العقود التي تبرمها الدولة مع جهات أخرى. ومع أن وزارة العدل في المغرب معرّبة، إلا أن سائر الموثّقين العصريّين

(باستثناء العُدول الشرعيّين) لا يحرّرون العقود والالتزامات إلا بلغة الماريشال ليوطي. مع العلم أن كتابة كل أنواع العقود والالتزامات ظلت، منذ دخول الإسلام وانتشار الكتابة بالحرف العربي وإلى وقت قريب جداً، تُحرّرُ بالعربية دون سواها.

د — استعمال الفرنسية في أحاديث الناس حتى داخل الأسر والعائلات وبين الرفاق والأصدقاء. ولكثرة اعتياد الناس على الكلام بخليطٍ من العربية والفرنسية، أصبح هذا الأمرُ لا يثير أيّ استغراب. وقد أدى ذلك بالفعل إلى خلق دارجة مغربية من نوع خاصٍّ لا هي بالعربية ولا بالفرنسية، وإنما هي رَطَانَةٌ مُلَفَّقَةٌ، كلمةٌ من هنا وأخرى من هناك.

هـ — استعمال الفرنسية في وسائل الإعلام على اختلافها، وكذلك في لوحات الإشهار التي تُعلّق بالشوارع والمحلات، والوصلات الإشهارية التي تتخلّل البرامج الإذاعية والتلفزية وتحتلّ حيزاً من صفحات الجرائد والمجلات.

2 — احتكارُ الفرنسية للقطاعات العلمية والتقنية في التعليم العالي والجامعي التابع للقطاع العام، فهي لغةُ التلقين الوحيدة لكل هذه التخصصات الحيوية التي تتجّه إليها النخبة المتميّزة من المتعلّمين. ولا شك في أن تعريب الإدارة والحياة العامة بقطاعاتها كافة، مرتبطٌ بشكل أساسي بتعريب التعليم الجامعي والعالي لأنه هو الذي يُخرّج الأطرَ العليا والمُتخصّصة المتحكّمة في الإدارة وتسيير الشركات والاقتصاد والتجارة وكل المرافق الحيوية الأخرى.

3 — إضعافُ مستوى تعليم اللغة العربية وطرقُ تدريسها، وتقليص الحصص الدراسية والمُعَامَلات الخاصة بها إلى الحد الأدنى. وإذا كان من السهولة ملاحظة الانهيار التام لمستوى التعليم العمومي في المغرب بكل مراحلهِ وتخصّصاته، وفشل كلِّ محاولات إصلاحه طوال الخمسين سنةً الماضية

لأنها لم تكن سوى محاولات سطحية وترقيعية تقف عند القشور ولا تتناول عمق المشكل، فإنه من السهل أيضاً ملاحظة الإهمال الرسمي لكل ما يؤدي إلى تحسين مستوى تعليم لغتنا الوطنية ويساعد عليه، من كتب مدرسية ووسائل تعليمية أخرى، وتكوين المدرسين، وتطوير البرامج والمناهج، وتحسين شروط التكوين التربوي "البيداغوجي" والمراقبة التربوية، وغير ذلك من أوجه النقص التي أسهمت بدور كبير في انخفاض مستوى التحصيل والتكوين العام وتحصيل العربية خصوصاً، وأوصلته إلى حضيض غير مسبوق في تاريخ المغرب.

4 - ازدهار غير مسبوق للتعليم الأجنبي - بكل مراحل وأنواعه - والفرنسي أو المفرنس على وجه الخصوص⁽¹⁵⁾، ولا سيما في مراحل الأساسية والثانوية وبدءاً من رياض الأطفال. وفي السنوات الأخيرة بدأنا نشاهد توسعاً في انتشار المدارس والجامعات والمعاهد العليا الأجنبية التي تدرّس كلياً بالفرنسية غالباً وبالإنجليزية أحياناً. وبصفة عامة أصبح الاستثمار في التعليم الفرنسي خاصة والأجنبي عامة، ظاهرة لافتة للنظر بشكل واضح، كما أصبح لافتاً أن تعليم مدارس البعثة الفرنسية والمدارس الموازية والمُعاضدة لها والمُتبنيّة لبرامجها ومناهجها، صار يجتذب كثيراً من الزبناء من أبناء المغاربة. وأول المستثمرين فيه، الحكومة الفرنسية بواسطة بعثاتها التعليمية، ثم شركات من القطاع الخاص الخارجي والداخلي ليس لها بالضرورة علاقة بمهنة التعليم. ومن العاملين فيه أيضاً جمعيات أجنبية مدنية ودينية تنصيرية تعمل تحت غطاء العمل الخيري.

إن ازدهار هذا النوع من التعليم الأجنبي بعدد من البلاد العربية ومنها المغرب، خلال العقود الأخيرة، لهو وحده الدليل القاطع على إفلاس منظومتنا التعليمية إفلاساً خطيراً. وأخطر ما فيه أننا نعهد بتكوين أبنائنا وأجيال مستقبلنا التي سيوكل إليها أمر قيادة البلاد، إلى مدارس لا تخدم الأهداف الوطنية، وإنما تُخرّب وتهدم كل ما بناه المكافحون الصادقون في سبيل تحرير البلاد من الغزو الثقافي والفكري والاستيطاني. فهل من أهداف هذه المدارس الأجنبية والمدارس الموازية لها

والمقدّدة لمناهجها المُستوردة، أن تنشئ أبناءنا على حُبّ الوطن والإخلاص له، والتّشبع بقيم الإسلام ومبادئه، والإيمان بمقوّمات ثقافتنا وهويّتنا الأصيلة، وتنمية روح التضامن الإسلامي والعربي؟ هيهات! ثم هيهات! وأنّى لها ذلك وهي التي تقوم مناهجها في أحسن الحالات على مبدأ اللاتكثيف إن كانت تابعة للنظام الفرنسي أو الغربي عموماً، وبعضها يعمل من أجل التّصيير علانية أو من وراء ستار؟ (16). أمّا أن نطمح في تنشئتهم على احترام لغتهم الوطنية وإنزالها المنزلة الرفيعة التي تستحقّها، فذلك ما لا يحلّم به الحالِم، أو يتوهّمه الواهِم.

ولكن لماذا نلاحظ هذا الإقبال الشديد على مدارس البعثات الأجنبية (والفرنسية منها على الخصوص) وما ينحو نحوها ويسير على مناهجها؟ إن أحد أسباب ذلك بالأساس هو انهيارُ التعليم العام انهياراً لا سابقة له كما قلت. وفي المقابل تُراهنُ هذه المدارسُ الأجنبية على جودّة التعليم ومردوديته وطُرُقِه ومناهجِه، بغضّ النظر عن أهدافه ومراميه الخطيرة التي قد لا يدركها أو يفكر فيها الكثيرون الذين يظنون أن اللغة ما هي إلا أداة ووسيلة يمكن أن يُؤدّي بها أيُّ محتوى تعليميٍّ كيفما كان. وثاني الأسباب أن هذا التعليم النخبوي هو الذي يضمن — في نظر الكثيرين — مستقبل أبنائهم في مجال سوق الشغل ويُبوئهم المناصب الرفيعة. أما تعليم العامة (أو العمومي) فهو محدودُ الآفاق، وإذا كان معرّباً فالطريقُ أمام أصحابه مسدودٌ مُغلَقٌ. والناسُ تبحثُ لأبنائهم عن التعليم النافع الذي يفتح أبواب الأرزاق. والنتيجةُ دائماً هي على حساب العربية وتعليمها، ولصالح اللغة الأجنبية ونموّها وازدهارها. أما الذين يفكرون في عواقب كلّ هذا، ويُشفّقون على مستقبل وطنهم ولُغتهم وهويّتهم، فهم دائماً كبشُ الضحية، وفي نظر النفعيين هم في عداد المِثاليين والمُغفلين. وهناك فئةٌ من المدارس الأجنبية لا تكلفُ الآباء شيئاً لأنها تُدخلُ نشاطها تحت غطاء العمل الخيري، ولكن خطر هذا النوع أكبر، لأن أغلب هذه المدارس الخيرية الأجنبية ذاتُ أهدافٍ تنصيرية تستغلُّ فقرَ الأسر وحاجة الأطفال للتعليم، فتُعطيهم التعليم بيد وتسلّبهم العقيدة واللغة والهوية بيد أخرى. ولذلك فإن تخليّ أية دولة إسلامية عن التعليم — ولا سيما الابتدائي والثانوي — وتسليمه إلى قطاع استثماريٍّ أجنبي لا دينيٍّ أو تنصيري، لهو في حدّ ذاته جناية لا

تُغْتَفَر. فتنشئة الأبناء والأجيال على القيم الوطنية والإسلامية شيء غير قابل للتقويت. لما فيه من مساوئ عديدة وانعكاسات سلبية كثيرة على مستقبل أبنائنا وأجيالنا القادمة التي تتلقّى تكويناً مضاداً لمقومات قيمنا وأهداف المدرسة الوطنية التي كانت هي الغاية المنشودة في يوم من الأيام. ناهيك عن الأضرار الأخرى التي تُفقدُهم المناعة والحصانة الدينية واللغوية والوطنية.

5 — استعمال اللغة الدارجة بدل الفصحى في كل المجالات، واعتبارها لغة وطنية مقبولة ومُحتَفًى بها، أما الفصحى فقد أصبحت في نظر فئة من الناس، لغة دخيلة على المغرب. ولقد تفاقمت هذه الظاهرة في السنوات الأخيرة بشكل لافت ومثير، لدرجة تبعثُ على التساؤل عمّن يقف وراءها؟ ومن يقوم بتمويل الحملات الدعائية لها؟ ومن يدفع ميزانية الإنفاق على إنتاج الأفلام والبرامج التلفزية والإذاعية ويُصدر المجلات الناطقة بها؟ ومن يسخر كل الوسائل للدعاية لها ومحاربة العربية الفصحى وتضييق مجال استعمالها؟ وإذا كانت مسألة الدعوة إلى العاميات والدوارج مسألة لها جذور تعود إلى المرحلة الاستعمارية كما بيّنا سابقاً، وأن أهدافها إذ ذاك كانت واضحة، فلا شك عندنا في أن أصحاب المصلحة فيما يحدث الآن مكشوفون أيضاً ولو تخفّوا وراء ألف قناع. إنهم أعداء العربية الجُدد من ورثة الأعداء السابقين وشركائهم في المصالح، والملتقيين معهم في الأهداف والمنافع. وما يؤلف بينهم جميعاً هو توسيع الخلاف بين الكيانات العربية المتعددة، والنفخ في روح القوميات المكونة لها، وما محاولة القضاء على الفصحى إلا لكونها أداة للتواصل والتفاهم والتوحد بين جميع العرب ومختلف القوميات الإسلامية، وباعتبارها اللغة التي تقرّبنا جميعاً من فهم أعماق الدين، ولغة العلم والثقافة العالمية والحضارة المشتركة.

ما العمل؟

ما قلناه سابقاً عن وضع العربية في المغرب ودول الشمال الإفريقي، وما تعانيه من ضعف وإهمال وتهميش وتفريط وتدني مستوى تعليمها، وغير ذلك من

المشاكل والعقبات، ليس وضعاً خاصاً بمنطقتنا هذه، وإنما هو في الحقيقة وضع عام تُعانيه العربية في دول المشرق أيضاً. فالعربية هناك تُعاني بدورها من تراجع مستمر أمام زحف الإنجليزية في التعليم والإدارة والشركات ومختلف مرافق القطاع الخاص، كما في الشوارع واللافتات والإعلام والإشهار والحياة العامة وسواها من المجالات. ويضاف إلى هذا دور اللغات والثقافات الأخرى لليد العاملة الأجنبية الكثيفة المستوردة التي أصبحت تشكل تهديداً خطيراً لوجود اللغة العربية، مما يثير تساؤلات جدية حول مستقبل الهوية العربية الإسلامية بالمنطقة إذا لم تتخذ لذلك التدابير المستعجلة اللازمة⁽¹⁷⁾.

وإذا كنا في المغرب نشكو من تشجيع اللهجة الدارجة، فإن اللهجات العامية في المشرق أيضاً ترتفع وتمرح، وتكاد تستحوذ استحواداً تاماً على القنوات الفضائية والمحطات التلفزية وما تنتج من أفلام ومسرحيات وأغان وبرامج ثقافية وترفيهية ورياضية، والفصحى لا تكاد تستعمل إلا في نشرات الأخبار الرئيسية وأكثر البرامج الدينية وليس كلها. والغريب أن كل بلد عربي أصبح يُجاري الآخر ويُسابقه في الدعاية للهجاته المحلية الخاصة، ويتنافس في تدريج أكبر نسبة ممكنة من حصص إعلامه الرسمي وغير الرسمي التي يبنُّها على الهواء.

وإذا كنا في المغرب أيضاً، نتلاوم فيما بيننا على تقصيرنا في حق العربية، فإن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن حلّ مشكلات اللغة العربية حلاً شمولياً ليس بيد المغرب وحده، وإنما بيد العرب جميعاً، بل بيد كل المسلمين، لأن المشكل يتعلق بلغة يستعملها العرب جميعاً ومستقبلها يهم ملايين أخرى من المسلمين. ومعالجة وضع العربية في المغرب مهما بذل فيه من جهد، لا يمكن أن يتم على الوجه المطلوب إلا في نطاق معالجة شمولية عربية مشتركة. وتعريب التخصصات العلمية في التعليم العالي — على سبيل المثال — لا يمكن أن يُنظر إليه نظرة إيجابية في المغرب إذا كانت أغلبية البلاد العربية الأخرى (باستثناء سوريا والسودان فيما نعلم) لم تتخذ القرار بتعريبها في بلدانها. علماً بأن تعريب الإدارة العمومية والحياة العامة أمر مرتبط كل الارتباط بتعريب هذه القطاعات الحيوية (من علوم وتقنيات) في التعليم العالي.

إن تنمية اللغة العربية والنهوض بتعليمها والرفع من مستواها وإصلاح أحوالها ومعالجة أوضاعها، أمورٌ تحتاج — أولاً — إلى إرادة عربية جذية وتدابيرَ مشتركة قابلة للتففيذ، وليس إلى توصيات أو قرارات ورَقية يُلقى بها في سلة المهملات. وتحتاج — ثانياً — إلى رصد أموال ضخمة وميزانيات كبرى تُنفقُ على هذا المشروع. والأموالُ العربية موجودةٌ بلا شك، لكن نحتاج لمن يُحسن استخدامها واستثمارها في هذا المجال بكل سخاءٍ وأريحية، من خلال برنامج أو خطة شمولية وجادة وعملية .

خلاصة القول:

وخلاصة القول أن المُشكلات التي تعاني منها اللغة العربية اليوم على مستوى الوطن العربي كله، كثيرةٌ ومتشعبة، لكن حلّها جميعها مرتبطٌ في نظري بثلاثة أمور أساسية:

أولها: حالة الضعف السياسي والعسكري للنظام العربي وما هي عليه الشعوب العربية والإسلامية من إحباطٍ وانهيارٍ نفسي بسبب توالي سلسلة الهزائم والانكسارات والصراعات الداخلية. وهذه الحالة انعكست سلباً على مشاعر هذه الشعوب المغلوبة المنهزمة، وأفقدتها الثقة في نفسها وقيمتها وهويتها. ومن ثم فإن من أهمّ التحديات الحقيقية التي تواجهها اللغة العربية في عصرنا هذا، هي تحديات هذه الحالة النفسية المتأزّمة التي يمرُّ بها الوطن العربي والإسلامي، ويعانيها الإنسان العربي المسلم الذي حوّل هذا الوضع إلى كائن ضعيفٍ هَشٍّ مغلوبٍ مُستَلَبٍ، وفي أحيانٍ كثيرةٍ إلى شخصٍ مُتَكَبِّرٍ لحضارته وتاريخه ولغته وثقافته، ومُنْبَهَرٍ بشدوهِ بقوة الغالب وثقافته ولغته، يريد أن يحتمي بمن يُخلّصه من محنته وانهزاميته وهوانه حتى ولو كان هذا الذي يفرُّ إليه هو العدو نفسه. والحلُّ الجذريُّ لاستئصال هذه الأزمة المستفحلة وما ينتج عنها، هو استعادة ثقتنا بالنفس والأوطان والهوية التي فقدناها، واسترداد الوعي الذي طار منّا، والتصالح مع ذاتنا.

وثانيها: حالة الضعف الاقتصادي والتقني "التكنولوجي" والعلمي التي يمرُّ بها الوطن العربي والإسلامي. فما دامت هذه الحالة قائمة، لا يمكن تصوُّر تطوُّر سريع وكبير على مستوى اللغة العربية. لماذا؟ لأن التطور الإيجابي للغة، أية لغة، مرتبطٌ بقوة الاقتصاد والإنتاج. فالأمة أو الدولة الأكثرُ إنتاجاً للعلم والتقانة "التكنولوجيا" والصناعات والأدوات التي يتوقَّف عليها النشاط العالمي الاقتصادي والتجاري والمالي، هي الأمة أو الدولة التي تسودُ لغتها وتُسرعُ في النمو والتطوُّر والانتشار. ورواجُ لغةٍ مجموعةٍ بشريةٍ مرتبطٌ برواجِ سلع هذه المجموعة ومنتجاتها الصناعية والتقانية "التكنولوجية". ولا يصعب بعد هذا أن نستنتج أن الثقافة التي تسودُ وتفرضُ نفسها هي ثقافة القوة الاقتصادية والعلمية والتقانية "التكنولوجية" المتحكِّمة في أسواق البضائع والإنتاج. ونحن اليوم واقعون تحت تأثير الثقافة الغربية المتغلِّبة وحضارتها ولغاتها، لأننا ما نزال في مرحلة ضعف اقتصادي وعلمي وتقني "تكنولوجي" شديد، بالإضافة إلى ضعف سياسي وعسكري. ويوم يتحوَّل ميزانُ القوة الاقتصادية والعلمية لصالحنا، إذ ذاك يمكن أن نتكلَّم جدِّياً عن ازدهارٍ أو نموٍّ حقيقي للغة العربية.

إننا في الوطن العربي عادة ما نهملُ علاقة اللغة بالاقتصاد وتأثير أحدهما على الآخر. أما تأثيرُ الاقتصاد على اللغة فهو ما ذكرناه، وأما تأثيرُ اللغة على الاقتصاد فهو حينما تستطيع دولة أو أمة أن تحوِّل لغتها إلى مجالٍ كبيرٍ للاستثمار. وتُعتبر فرنسا أكبرَ دولة نَجَحَتْ في استثمار لغتها وزرعها في كل مستعمراتها القديمة. وقد أنفقت كثيراً جداً من الأموال وبذلت جهوداً غير مسبوقة في هذا المجال، ولكنها الآن تعيشُ مرحلةً جَنَى الأرباح الطائلة من هذا الاستثمار، ليس في المجال الاقتصادي وحده ولكن في المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً. وقد كان بإمكان الدول العربية — مجتمعة أو منفردة — أن تحوِّل اللغة إلى رأسمالٍ صالحٍ للاستثمار على المدى البعيد، بالعمل على نشرها في إفريقيا وآسيا وغيرها من مناطق العالم، فهي ثروة هائلة بيدها لكنها لا تُحسن الاستفادة منها.

وثالثها: انعدامُ وجود خُطَّة عربية مشتركة وموحَّدة مدعومة بقرار سياسي حازم ونافذ المفعول، للتمكين للغة العربية، وإصلاح وضعها والنهوض بتعليمها

وطرقُ تدريسيها ونشرها رغم صدور الكثير من التوصيات عن عدد من الهيئات السياسية والثقافية والعلمية العليا في الوطن العربي⁽¹⁸⁾ تظل في العادة حبراً على ورق. إن شأن العربية لا يهم بلداً واحداً أو شعباً من الشعوب العربية بمفرده، لكنه أمرٌ يهمُّ العرب والمسلمين جميعاً. فعلى العرب بالدرجة الأولى والمسلمين بالدرجة الثانية، أن يهبوا لتنمية العربية ومعالجة أوضاعها. لكن لا يمكن لقرار من هذا النوع أن يُوجد وتكون له قوةُ تنفيذٍ وفاعلية، ونحن في ظلّ الانقسام والتمزق والهوان والتبعية وحالة الضعف النفسي والانهيار السياسي والتخلف العسكري والاقتصادي والتقاني "التكنولوجي" والصناعي والعلمي التي نعيشها. إن حلَّ مشكلة العربية يتوقّف — فيما يتوقّف عليه — على خطة تقتنعُ بها وتضعها وتلتزم بتنفيذها اثنتان وعشرون دولة عربية. وإذا كانت كثيرٌ من التوصيات والقرارات الصادرة عن عدد من القمم والهيئات العربية العليا، قد ظلت متعثرة باستمرار، فلأنها لم تكن صادرة عن اقتناعٍ جديٍّ أو إرادة حقيقية كاملة يتقاسمها الجميع⁽¹⁹⁾، وهذا عكس ما هو عليه أمرُ الفرنسية أو الإسبانية أو الألمانية أو الإيطالية أو حتى العبرية وغيرها من اللغات التي يكون أمرُها بيد دولها ومجتمعاتها وحدها لا بيد أكثر من عشرين دولة منقسمة ومتصارعة وبعضها يعتبر نفسه عدواً للآخر.

لكن، هل معنى هذا كله، أننا ندعو للاستسلام أمام الأمر الواقع، والجلوس في قاعة الانتظار إلى أن يتحد العرب ويصدروا قرارهم ويصبح عزمهم وتتصلح أحوالهم وترتفع معنوياتهم وتتقوى اقتصادياتهم ويتحولوا إلى قوة سياسية وعسكرية وعلمية وتقانية "تكنولوجية" ... إلخ؟ إنني لا أقول بفكرة الانتظار، ولكن أردتُ فقط أن أنبه على أبعاد المشكل وخطورة الواقع وما يستوجبُه من عمل لتغييره بكل ما نستطيع. وأولُ خطوة في هذا العمل هي تجنيد العلماء والمفكرين والمتقنين والباحثين وحَملة الأقلام عموماً، ليقوموا بدورهم في التوجيه والتوعية وتقديم النصح الصادق لذوي الأمر ومن بيدهم القرار، وقيادة المعركة في اتجاهها الصحيح غير المنحرف، والإسهام بكتاباتهم وبحوثهم ومشاريعهم العلمية ونظرياتهم التطبيقية التي تساعد على حل مشاكل العربية والتغلب على معوقاتِها. وتجنيد ما بالإمكان

تجنيده من وسائل الإعلام وتقنياته، وطاقت الشباب الحيّة المتنوّرة، وجميعيات المجتمع المدني، وذوي الأريحية من القادرين على تمويل المشاريع العلمية والتربوية والتطبيقية للنهوض بالعربية، وتجميع كل الأفكار المفيدة البناءة التي تخدم الغرض وتؤدي إلى تحقيق الهدف.

الهوامش

1. راجع الفصل الرابع من الكتاب الأول من المقدمة وهو بعنوان: في لغات أهل الأمصار. وهذا نصّ كلامه: «ولما تملّك العجم من الدّيلم والسّجوقية بعدهم (أي بعد العرب) بالمشرق، وزناتة والبربر بالمغرب، وصار لهم الملّك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية، فسَد اللسان العربيّ لذلك، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حُفِظَ الدين، وسار ذلك مُرَجَّحاً لبقاء اللغة المضّرية بالأمصار عريية. فلما ملّك التتّر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المُرَجَّحُ وفَسَدَت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رَسَم في الممالك الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعياً بالقوانين الممارسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله لذلك. وربما بقيت اللغة العربية المضّرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طالباً لها، فأنحفظت بعض الشيء. وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين، حتى إن كُتِبَت العلوم صارت تُكْتَبُ باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس..». وطبعاً لقد زاد أمر العربية سوءاً ومستواها انحداراً في كل البلاد العربية والإسلامية بعد أن سيطر عليها الحكم العثمانيّ التركي. فحلّت التركيّة محلّ العربية في أغلب المجالات. وما أن سقط الحكم العثماني حتى انطلقت حركة إعادة تعريب الدواوين كما حدث في الشام ابتداء من سنة 1918م، وإنشاء المجامع اللغوية العربية لإعادة إحياء العربية وتنشيطها (راجع: عبد الكريم خليفة: اللغة العربية على مدار القرن الواحد والعشرين، ص43 وما بعدها).
2. رئيس للوزراء ووزير للتعليم في فرنسا (ت 1893م)، كان من أشهر مُنجزاته فرضُ تعميم التعليم العمومي ومجانتيته وعلمانيته.
3. راجع: الودغيري: الفرنكفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب. وانظر أيضاً نماذج مما فعله الاستعمار الفرنسي في منطقة غرب إفريقيا وجنوب الصحراء في البحث الذي نشرته بعنوان: اللغة العربية في منطقة جنوب الصحراء: الماضي والحاضر والمستقبل، ضمن كتاب أصدرته منظمة الإيسيسكو بعنوان: اللغة العربية، إلى أين؟ وأعيد نشره في مجلة الإيسيسكو: الإسلام اليوم، ومجلة: التاريخ العربي ع:26.
4. من الأمثلة الصغيرة على ذلك أن تدريس الطب الحديث وغيره من العلوم في مصر كان قد انطلق منذ بداية القرن التاسع عشر (1827م) على عهد محمد علي الذي أنشأ المستشفى الجامعي الكبير المعروف بمستشفى (قصر العيني)، فتخرّج منه عددٌ من الأطباء، كان منهم طبيبٌ مغربيّ أرسله الحسن الأول العلوي في إطار البعثات العلمية التي أرسلها إلى عدد من دول العالم، وهو عبد السلام

- بن محمد العلمي (ت1313هـ) الذي تركَ كُتُباً طَبيبة منها كتابه المشهور: ضياء النُّبراس في حلِّ مفردات الأتطاكي بلغة فاس . وسار الأمرُ على المنوال نفسه في بيروت منذ سنة 1866م، فلما جاء الاستعمارُ البريطاني فرضَ تعليمَ الطب وغيره من العلوم بالإنجليزية. فكانت انتكاسةً جديدةً. ثم حين انتصرت الثورة العربية في سورية ودخل فيصل الأول إلى دمشق شرعَ مباشرةً في تعريب الدواوين الحكومية، لكن الإنجليز سرعان ما فرضوا لغتهم وأقصوا العربية من كل المجالات الحيوية (انظر: عبد الكريم خليفة: اللغة العربية على مدارج القرن الواحد والعشرين، ص: 42).
5. انظر كتاب: ... Tempête sur le Maroc ص: 33 ، وكتاب: الفرنكفونية والسياسة اللغوية.
6. انظر النص كاملاً ضمن كتاب: الفرنكفونية والسياسة اللغوية الفرنسية بالمغرب، ص: 126.
7. انظر كلام جورج سوردون (G.Surdon) في نص له بعنوان: Le problème musulman en Afrique du nord ضمن كتاب: Contacts en terre d' Afrique, Meknès 1946
8. لم تنجز لحد الآن من المبادئ الأربعة لتصوُّر المدرسة الوطنية المغربية ، سوى مبدأ المغربية ، أما المبادئ الثلاثة الأخرى فما تزال متعثرةً إلى اليوم ، وفي مقدمة ذلك تعريب الإدارة الذي لم ينجز من مساحته الشاسعة سوى جزء صغير جداً.
9. انظر أمثلة على هذه الكلفة الباهظة ما أورده خالد بن العربي في دراسته التي بعنوان: ازدواجية اللسان في الميزان : في شروط وكلفة ازدواجية لغة المجتمع— مراكش 2006م.
10. يقول الدكتور محمد العربي الزبيري الرئيس السابق لاتحاد الكتاب الجزائريين، وهو يتحدث عما حصل في الجزائر خلال عشرين عاماً فقط من الاستقلال (1962 — 1982م) :« ... واقتحمت اللغة والعقلية الفرنسيّتان منازلنا أو منازل شخصياتنا، وصارت العربية أمراً غريباً في إدارتنا وفي سائر دواليب الدولة ، حتى أصبح ذو الثقافة الوطنية يشعر بالغربة، ويُعتَبُ بالأصعب على أنه مُمَثِّلٌ للتخلف والرُّجعية. والغريبُ أن هذه النتيجة التي تحقّقت في فترة وجيزة بعد الاستقلال لم تتمكّن سلطات الاحتلال من تحقيق ولو جزء بسيط منها خلال مئة واثنتين وثلاثين سنة من الظلم والاضطهاد وتجربة العديد من السياسات الرامية إلى جعل الجزائر جزءاً من فرنسا ». انظر كتابه: الغزو الثقافي في الجزائر — الجزائر 1982م .
11. أصبح يُطلق — فيما بعد — على أصحاب هذا الاتجاه الذي أصبح يدافع عن ثقافة فرنسا ولغتها ومصالحها في المغرب العربي، اسم: حزب فرنسا.
12. انتهى في المغرب تعريب المواد العلمية بالمرحلتين الابتدائية والثانوية سنة 1990م. وأما تعريب العلوم والتقنيات في التعليم العالي فلم يُنجز منه شيءٌ لحد اليوم.
13. انظر في هذا الخصوص كتابنا: اللغة والدين والهوية.
14. كثيرٌ من الناس يفهمون خطأً من عبارة (لغة القرآن) أنها تعني بالضرورة القول إن العربية الفصحى لغة مقدّسة لا تنطبقُ عليها سننُ التطور، وبالتالي يحكمون عليها بالجمود. والحقيقة أن لا تعارض بين كون العربية لغةً نزلَ بها القرآن(أي نزلَ بأعلى مستوى من مستوياتها الأدبية والبلاغية، عجزَ فصحاء العرب عن تقليده أو محاكاته) ، فأصبحت مرتبطةً به أشدَّ الارتباط ، وكونها في الوقت ذاته ومن وجه آخر، لغةً بشرية يسري عليها قانون التطوُّر والتغيُّر مثلما يسري على بقية اللغات

الإنسانية. فالمقدسُ هو النصُّ القرآني بألفاظه وأصواته وكلماته وتركيبه ، بمعنى أنه لا يمكن مسّه أو تغييرُ حرفٍ من حروفه على مرّ العصور. أما العربيةُ من حيث هي لغةٌ تتدرّج في مستوياتٍ كثيرة من الفصاحة ووجه الاستعمال الأخرى، فليست مقدّسة بمعنى أنها قابلة للتطور وليست جامدة. وقد عرفت بالفعل مراحل متعدّدة من التطور، سواء على مستوى الفصحى أم على مستوى اللهجات. إلا أن الفصحى تخضع لضوابط وقواعد موحّدة، بينما اللهجات والدوارجُ يخضع كلٌّ منها إلى قواعد خاصة به.

15. يصرّح موقع : Service coopération et d'action culturelle أن شبكة مؤسسات التعليم الفرنسي بالمغرب تُعتبر أكبر شبكة في العالم، فقد بلغ عددُ تلاميذها في شهر مايو 2010م، ما مجموعه: 28 100 تلميذ، 60% منهم مغاربة. وهذه المؤسسات موزّعة على أهم المدن المغربية في كل المستويات التعليمية (من الابتدائي إلى الثانوي).

16. وقد ضبّطت أجهزة الدولة المغربية حالات كثيرة من الأشخاص الأجانب وهم متلبّسون بتتصير أطفالنا الصغار في جهات متعددة من المغرب، وأُخذت إجراءات في حقهم. وهناك توجه خاص لبعض مدارس البعثات والإرساليات الأجنبية المشبوهة، بدأ يتضح خلال السنوات الأخيرة، وهو تركيزها أساساً على مراحل التعليم الأولي لما قبل سن التمدريس العادي، والإكثار من فتح رياض الأطفال ودور الحضانة، والاقتصار في تعليم المنتسبين إليها على اللغة الأجنبية وحدها (الفرنسية أو الإنجليزية)، والغاية هي غرس محبة هذه اللغة الأجنبية في قلوب الأطفال الصغار قبل سن السادسة أو السابعة. وهناك حالاتٌ ضبّطت بأدلة ثابتة لبعض رياض الأطفال يعمل فيها منصرون بشكل واضح مكشوف.

17. من المفارقات أن يُطلَب من اليد العاملة في المشرق إتقان الإنجليزية، ولا تُطلَب في أغلب الأحوال بمعرفة تامة بالعربية. وفي المغرب يُشترطُ إتقانُ الفرنسية وليس العربية لتولي أغلب الوظائف بالقطاعين العام والخاص على السواء.

18. من أهم هذه التوصيات ما صدر عن القمة العربية العشرين في دمشق (مارس 2008) حول اللغة العربية وأهميتها في التنمية الشاملة.

19. حين كانت بعض الدول العربية تدعو للتعريب وتكافح من أجله، كان الرئيس بورقيبة مثلاً يشارك في تأسيس رابطة الفرنكفونية التي أصبحت من أكبر العقبّات والعراقيل في سبيل التعريب. وفي هذا الوقت أيضاً كان الرؤساء المؤسسون للدولة الموريتانية يقولون بأن يتضمّن دستورُ الدولة أن تكون الفرنسية لغة رسمية للبلاد، وكذلك حدث في دول أخرى أصبحت أعضاء في الجامعة العربية مثل جزر القمر وجيبوتي.